الخلق القومي أو سيكلوجية الأمم



سيكلوجية بعض الشعوب

تأليف : أندريه سيجفريد
ترجمة : غنيم عبدون
مراجعة : مصطفى كامل فوده

بقلم : رئيس التحرير

عدد الصفحات ١٧٧ ص ١٧×٢٤ سم
الثمن ٥ر١١ قرشا
الناشر : الدار المصرية للتأليف والترجمة بالاشتراك مع دار النهضة العربية

من الاعتقادات الشائعة ان لكل أمة من الأمم خلقا خاصا تمتاز به من غيرها من الأمم ، وان هذا الخلق الخاص يبقى على الدهر دون أن يتغير وانه يمكن تتبع آثاره خلال تاريخها وفي كل ناحية من نواحي حضارتها ، ويكون هذا الاعتقاد عاملا هاما من عوامل الأيديولوجية القومية ، ويتضمن بطبيعة الحال نوعا من الاعتزاز بتفوقه والمفاخرة به وانتقاص الخلق القومي لسائر الأمم لأنه يقصر عن مداه ولا يسمو الى مستواه ، وحتى بعض المفكرين الذين ألفوا الشك وتعودوا دقة البحث والأناة في اصدار الأحكام لا يترددون في التسليم بوجود الخلق القومي ، على أن هناك فريقا آخر من المفكرين يرون ضرورة بحث هذا الاعتقاد السائد ومحاولة استقصاء أصوله ، ولكنهم مع نبذهم لكثير من المبالغات المتعلقة به يستمسكون بحقيقة وجوده ، من هؤلاء المؤرخ الألماني الكبير ليبولد فون رانكه الذي ذهب الى أن الخلق القومي يمكن أن نشعر بوجوده ولكن لا يمكن أن ندرك كنهه فهو « هواء روحي » يغشى كل شيء .

وكثير من الآراء التي تؤيد وجود الخلق القومي ترد الأمم الى جماعات منحدرة من بعض السلالات وطالما أدهش الرحالين وساسة الأمم والكتاب والباحثين ذلك الاختلاف الكبير بين قوانين الأمم وعاداتها وتقاليدها وأساليب حياتها .

وقد ظهرت بحوث مختلفة وكتب عدة حول مسألة الخلق القومي تحاول وصف سماته وتعليل وجودها ، وقد كان قدماء الباحثين يرجعون الخلق القومي الى تأثير القوى الطبيعية مثل النجوم والجو والتربة على الدم والافرازات الداخلية وأمزجة الناس ، ولكن بعض الكتاب اليونانيين رأوا أن العامل الأهم في تكوين عقلية الأمم هو تأثير العوامل الجغرافية على الأحوال الاجتماعية التي تسيطر على حياة الأمم .

وأخذ يظهر بعد ذلك شيئا فشيئا أن للحروب والهجرات والتجارة والكشوف والاختراعات والثورات والانقلابات والاحتكاكات الثقافية تأثيرا بعيد المدى فى تكوين حضارة الأمم ، وبطبيعة الحال كانت هذه الحركات التاريخية متأثرة الى حد ما بالعوامل الطبيعية ، ولكن صار من الواضح أن تأثير الطبيعة تأثير نسبى ، وتأثير البيئة الطبيعية يختلف باختلاف الأمم وكذلك يختلف تبعا لاختلاف الظروف والملابسات ، ومهما يكن من أمره فانه متوقف على عوامل كثيرة ، والشخصية الفردية والشخصية الجماعية يلعبان دورا هاما بين هذه المجموعة من العوامل المتعددة .

وقد عنى مفكرو العصور الحديثة بتنوع العادات والقوانين وكان البحث عن أسباب هذا التنوع من المسائل المحببة الى نفوسهم ، وفى طليعة هؤلاء الباحثين بودان ومونتسكييه الذى جاء بأفكار صائبة وأورد ملاحظات قيمة فى هذا الصدد كان لها تأثير قوى فى البحوث التى تناولت هذا الموضوع ، وقد أخذ عليه الاسراف فى تقدير أثر الجو ، وكان فى طليعة المفكرين الذين قللوا من أهمية التأثير الجوى الفيلسوف هيوم والمفكر الألمانى الشهير هردر ، وكتاب القرن الثامن عشر بوجه عام بالغوا فى تقدير تأثير الجو ، وجاء بعدهم الرومانتيكيون فأكدوا أهمية النمو التاريخى العضوى وقالوا بوجود الروح القومية التى يمكن اقتفاء آثارها خلال تاريخ كل أمة من الأمم ، وأخذ المؤرخون فى أعقاب ذلك فى محاولة اثبات استمرار وجود الخلق القومى ورد كل ما تقوم به الأمم الى عبقريتها القومية ، ولكن هذا الرأى لم يثبت بعد ذلك للبحث .

وساعد تقدم المعرفة التاريخية والمعرفة الجغرافية على وجود مناهج للبحث أكثر دقة فى تناول مسألة الخلق القومى ، وكثير من المؤرخين المحدثين والجغرافيين والباحثين النفسيين قد قدموا معلومات قيمة فى بحث سمات الخلق القومى ، وهم لم يكتفوا بتناول مسألة الخلق القومى من وجهتها العامة بل عملوا على دراسة الأمم المختلفة مع توجيه العناية الى بحث الدور الذى لعبته فى تاريخها تقاليدها ومثلها العليا واتجاهاتها الفكرية .

وقد أسفر تناول موضوع الخلق القومى من الناحية الجغرافية عن تعميمات عريضة مستمدة من دراسة أمم مختلفة ، وكانت هذه التعميمات موحية للكثير من الأفكار ، ولكنها مع ذلك لم تسلم من التعرض للأوهام ، وقد رئى أن دراسة البناء الاجتماعى لأمة من الأمم فى ضوء ماضيها التاريخى وملاحظة بيئتها الطبيعية تجنب الباحثين خطر التعميمات السريعة ، وقد كان الباحثون المتقدمون يبدؤون بالتسليم بوجود الخلق القومى ويحاولون بعد ذلك بيان تأثيره فى تاريخ الأمة ولكن الدراسات الحديثة تبدأ بوصف النظم السائدة فى الأمة وتحلل عناصر حضارتها وتستخلص بعد ذلك سمات خلقها القومى واذا كان الباحثون لا يزالون يستعملون اصطلاح الخلق القومى فانهم يقصدون به الاتجاهات الغالبة على حضارة أمة من الأمم .

ولم يسلم برغم ذلك هذا الاتجاه من النقد ، فقد اختلفت الآراء فى مسألة : هل تسيطر اتجاهات الحضارة الغالبة فى أمة من الأمم على كل قطاعاتها فتبدو فى السياسة والاقتصاد كما تظهر فى الأدب والفن ، وفضلا عن ذلك فان الحضارة القومية لأية أمة من الأمم ليست تعبيرا خالصا عن خلقها القومى ، وكل أمة من الأمم قد استوردت جانبا من حضارتها من الخارج ، وفى بعض الأحيان يفرض على أمة من الأمم نظام بدون موافقتها ، فالديانة المسيحية مثلا قد فرضت على بعض الأقوام بالقهر والارغام وبرغم مقاومتهم الشديدة وان كانت قد أثرت بعد ذلك فى نظرتهم الى الحياة وقد أوضحت الدراسات المقارنة للقوميات المختلفة فى أدوار تطورها ان أمة من الأمم لم تنفرد بسمة من السمات ولم تختص بموهبة حرمت منها سائر الأمم ، وأن الاختلافات فى النسب والدرجات ، وقد يسبق ظهور سمة من السمات فى بعض الأمم وقد تكون أقوى فى بعض الأمم منها فى أمم أخرى .



وأهم الاعتراضات الموجهة الى فكرة الخلق القومى هى أولا اختلاف الأخلاق الشخصية للأفراد وتباين مستوياتهم الثقافية فى كل أمة من الأمم وثانيا عدم وجود فروق جوهرية أو تباين فى السمات الأخلاقية بين الطبقات المتقابلة فى مختلف الأمم ، وثالثا التغير الجوهرى الذى كثيرا ما يطرأ على الآراء التى نكونها عن الخلق القومى لأية أمة من الأمم .

ويمكن أن نستخلص من ذلك أن الخلق القومى ليس ثابتا مستقرا وانما هو عرضة للتغير تحت ضغط الحوادث والملابسات ، ويزعم الشعوبيون أن الخلق القومى للأمم غير قابل للتغيير وهى فكرة خاطئة ، وكما أن أخلاق الفرد ليست ثابتة ولا مستقرة فكذلك أخلاق الأمم عرضة للتغير من حال الى حال ، والخلق الفردى يشمل نزعات متعادية وهى الى حد ما معرضة للتغير ، ويمكن أن نفهم الخلق الفردى بوصفه مجموعة من القوى لها وحدة ولها كذلك حظ من الثبات والاستقرار تحت تأثير الميول الموروثة والارادة الفردية وملابسات الظروف الخارجية ، ومن الواضح أن الخلق الفردى أكثر استقرارا وأقوى وحدة من خلق الجماعة ، ومرجع ذلك الى أن ارادة الفرد أكثر تركيزا مما نسميه « الارادة العامة » . وان الجماعات بطبيعة الحال تشمل عناصر أكثر تنوعا من عناصر الشخصية الفردية ، كما أن الجماعات اطول حياة من الأفراد وهى من ثم أكثر تعرضا لفرص التحول والتغيير ، وعقلية الأمم ليست مسألة تقاليد فحسب ، فان لتكوينها الاجتماعى وللأفراد الأقوياء تأثيرا بعيد المدى فى تكوينها .

ويمكن أن نعرف الخلق القومى بأنه مجموعة التقاليد والمثل العليا الشائعة فى أمة من الأمم ، وهى تختلف تبعا لاختلاف البيئة المحلية والطبقة الاجتماعية والعقيدة الدينية والنزعة السياسية الحزبية برغم وجود عوامل مشتركة بين الجميع ، وتصل الاختلافات الاقليمية فى بعض الأمم الى حد يكاد يفصم وحدتها القومية ، ولكن الأيديولوجية القومية تعمل على التقليل من شأن تلك الاختلافات الاقليمية وتحاول فى بعض الأحيان أن تستغلها لمصلحة مجموع الأمة ، وفى سبيل تحقيق هذه الغاية تعمل على اكبار شأن الأبطال الوطنيين وتشيد بمفاخر الأمة ومغامراتها الرائعة ومواقفها المشرفة وتدخل فى روع أفراد الأمة أن أمتهم لها رسالة سامية وتثير حماستهم لتحقيق هذه الرسالة .

والاعتقادات التى تكونها كل أمة من الأمم عن نفسها وعن غيرها من الأمم مزيج من الحقائق والأوهام ، لأن المبالغة من ناحية والرغبة فى الانتقاص والتسوية من ناحية أخرى تلعبان دورا هاما فى تكوين هذه المعتقدات ، ولكن يحسن أن نلاحظ أنه حتى الأوهام فى هذا الصدد لها أهميتها ، وقد نوه كثير من المفكرين بتأثير الأسطورة فى حياة الأمم وتقوية روابطها القومية ولا تزيد هذه الأساطير عن كونها مجموعة من الأوهام نابعة من الأحوال الاجتماعية والعوامل الطبيعية ، ويكمن خطر الأوهام التى تمتزج عادة بفكرة الأخلاق القومية فى أنها ليست جميعها من نسج الخيال ، فبعض هذه الأوهام له نصيب من الواقع والحقيقة ، وهذا يجعل لفكرة الخلق القومى سندا من تاريخ الأمم يقوى الاعتقاد بوجودها ويؤكده ويعين على بقائه واستمراره ، على أن هذا لا يمنع حدوث تغيرات فى الخلق القومى للأمم كما هو ملحوظ فى تاريخ الأمم ، فقد عرف الانجليز حينا من الدهر بأنهم قوم ديدنهم حب الثورات على حين كان الفرنسيون يفخرون بولائهم الشديد لملوكهم واستقرار نظمهم ، وقد تغير ذلك تبعا لتطورات الأحوال وضغط الظروف .

ولكن ما مدى قابلية عقلية الأمم للتغير ؟ ان لهذه المسألة اهميتها من الناحية التاريخية ومن ناحية السياسة العملية ، والاجابة على ذلك تستدعى النظر فى مقومات الخلق القومى ، ولا نزاع فى أن جانبا من التقاليد والمثل العليا القومية متصل بحياة الأفراد وجانبا آخر مرتبط بحياة الأمة فى مجموعها ، ولكل أمة هوى خاص فى نوع



من الطعوم والشراب والملابس وايثار لطراز من طرز البناء وما الى ذلك من أساليب الحياة وطرائق العيش ، وعناية الانجليز مثلا بالألعاب الرياضية معروفة منذ قرون خلت ، وقد أثرت فى مثلها العليا القومية ، وكل أمة من الأمم تكبر من شأن عاداتها الخاصة ، وتزدرى عادات غيرها من الأمم وتجعلها فى بعض الأحيان موضوعا للتندر والفكاهة ، كما أن هناك اختلافات فى اتجاهات التفكير والعواطف ، فالفرنسيون يؤثرون المنطق الصارم واللغة الواضحة كما يميل الانجليز الى النزعة التجريبية وينفرون من التفكير المجرد والانساق الفكرية ، ويفضل الالمان التفكير فيما وراء الطبيعية المشوب بالغموض .

ومعظم الأفكار التى يتكون من مجموعها الخلق القومى تشمل التقاليد والمثل العليا والاهتمامات الفكرية والمادية ، وتحتفظ التقاليد بأهميتها ما دامت مرتبطة بمصلحة مختلف الطبقات ومثلها العليا ، وكذلك المثل العليا تظل محتفظة بقيمتها ومكانتها ما دامت لا تضار منها مصلحة الطبقة التى تتمثل فى أفرادها ارادة الأمة العامة ، ولما كانت طبقات الأمة معرضة للتغيير الدائم وظهور طبقات تحصل على نصيبها من المشاركة فى الحكم والمكانة الاجتماعية لذلك تصير التقاليد والمثل العليا التى يتكون منها ما نسميه الخلق القومى معرضة للتغيير من الحين الى الحين ، وقد ظلت سياسة بريطانيا لمدة قرون مثلا قائمة على مبدأ توازن القوى ، ولكن بعد الحرب الكبرى الأولى حل محله الأخذ بسياسة ضمان السلامة المشتركة والاعتماد على مجلس الأمن ، وكان من بواعث هذا التغير ما حدث من تطور فى الحياة الانجليزية السياسية والاجتماعية .

والبيئة الطبيعية والتكوين الاجتماعى يشتملان على عوامل شتى تشجع على انماء ضروب شتى من الخلق القومى أو تعترض نمو الوان اخرى من هذا الخلق ، والأمة التى تعيش فى منطقة محدودة تكون فى العادة وحدتها أكثر تماسكا من الأمة التى تعيش فى منطقة شاسعةمترامية الأبعاد ، وقد كان التقدم الثقافى والاجتماعى مدعاة لاظهار الاختلافات والمميزات الفردية ولكن الاختراعات الفنية الحديثة وتقدم التنظيم السياسى والصحافة والتربية ووسائل النقل والاتصال الحديثة مثل السكك الحديدية والتليفون والاذاعة كان لها أثر قوى فى الابقاء على الوحدة القومية وتقوية روابطها والمساعدة على تكوين العقلية المشتركة والخلق القومى العام ، وسيطرة الدولة فى العصر الحديث من اقوى عوامل اظهار الخلق القومى وتأكيده .

ونمو الخلق القومى كثيرا ما يؤدى الى وجود خلاف بين أخلاق الفرد فى أحواله الخاصة وبين سلوكه فى الأمور المتصلة بقوميته ، وقد يكون الفرد مسالما وانسانى النزعة فى شئونه الخاصة وعلاقاته الشخصية ونزاعا الى العدوان والتحكم والطغيان فى المسائل المتصلة بقوميته وبخاصة فى الأمور التى تمس مصالحها أو تتصل بشرفها ومكانتها بين الأمم ، ويؤثر هذا الازدواج الخلقى فى التفكير المنطقى ، فمن العبث واضاعة الوقت محاجة انسان مسرف فى نزعته القومية لأنه لا يستطيع الاستجابة للنتائج المنطقية اذا كانت لا تؤيد مطالبه القومية .

والطريق القويم لدراسة الخلق القومى فى الأغلب الأعم لا يكفى فيه مراقبة الاختلاف بين سلوك الفرد فى أحواله الخاصة وسلوكه فى الأحوال العامة ، فلابد من تعرف صفات الأمة البارزة فى آثارها الثقافية وتقاليدها وسياستها العامة ، وقد دلت دراسة صفات الأمم وسماتها العقلية والأخلاقية بهذه الطريقة على أن ما اصطلح على تسميته الخلق القومى للأمم ليس شيئا ثابتا جامدا مستعصيا على التغير ، وانما هو شىء مرن قابل للتشكيل حسب الظروف التى تكتنف حياة الأمم وتعترض مجرى حياتها .

وقد رأى الكاتب الفرنسى البحاثة القدير أندريه سيجفريد أن يخوض عباب هذا الموضوع ، وكان له من ثقافته الواسعة وعلمه الغزير ورهافة الحس وتعدد الجوانب ما أعانه على اجادة تناوله وحسن معالجة مشكلاته ، وكتابه فى هذا الصدد مجموعة من المحاضرات القاها فى مناسبات عدة وجمعها بعد ذلك بين دفتى كتاب أسماه « سيكولوجية بعض الأقوام » وقد أحسن الأستاذ غنيم عبدون الاختيار فى ترجمة هذا الكتاب القيم الى اللغة العربية ، وأحسبه من خير ما ترجم فى

الفترة الأخيرة من الكتب وأحقها بالتنويه به وأجدرها بالقراءة الواعية والدراسة الممحصة .

وقد استهل المؤلف كتابه بفصل عنوانه « الوجه الجديد للعالم » قال فى مطلعه : فى سيكولوجية بعض الشعوب أصول للدوام والبقاء لا يعتريها الفناء أبداً ولا يحكم عليها بالزوال قطعا ، فنحن الفرنسيين مثلا نرجع فى كثير من أصوليتنا وخصالنا الى أجدادنا الغال ، على أن الحضارة المميزة لشعوب البربر واليهود وهى التى تحدث عنها المؤرخ تاسيتوس فى كثير من مؤلفاته هى بلا ريب توجد لدى الألمان والاسرائيليين اليوم ، ومع ذلك فان هناك نوعا من التكيف والمواءمة بين شعب وآخر .

ولسوف نسائل أنفسنا فى الصفحات التالية لهذا الكتاب عن حقيقة ما يشكل سيكولوجية هذه الشعوب الغربية ، والى أى حد هم الآن مهيئون لتقبل أية ثورة عرضية تفرضها عليهم ظروف معيشتهم .

وقد مرت هذه الشعوب بحربين عالميتين غيرتا من وجه العالم ، وأخلتا بتوازنه ، ونحن ندرك جيدا أننا لا نقصد بذلك أن هذه الشعوب قد مرت بمجرد تطور عادى لا أكثر ولا أقل ، بل ان ما وقع كان فى الأحرى « ثورة » بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى ، وذلك بعد الحربين العالميتين ، ونستطيع أن نقول أن كل شىء قد اعتراه التغير ، فقيم الأشياء لم تعد كما كانت عليه قبل هاتين الحربين ، والعلاقات الانسانية بين بعض الناس وبعضهم الآخر قد تغيرت بشكل جذرى وقلبت رأسا على عقب .

وفى وسعنا أن نقول ان الفكرة التى كونها الناس لأنفسهم عن العالم وقوانينه قد هبت عليها « رياح التغيير » فجاة ، بيد أنها (١) لم تمس بصورة قاطعة أسس الأخلاق ولا طرائق التفكير » .

ولكن هذه الأزمة مع ذلك كانت لها مقدماتها ، ففى أواخر القرن التاسع عشر اخذت تظهر نتائج الثورة الصناعية ، وقد غزت الآلة كل مناطق العمل وأثرت فى كل شىء ، ولم تكن الحربان العالميتان الأخيرتان هما السبب فى ذلك وانما كانتا من دواعى التعجيل بحدوث هذا التغير الشامل .

فالعالم فى رأى سيجفريد يواجه شيئا جديدا ليس له نظائر فى الماضى يعيننا على مواجهته وهو يؤكد غرابة هذا الموقف الجديد بالقياس الى اخوانه الأوربيين بوجه خاص ، وقد ادخل هذا الموقف الجديد المحير على نفوسهم لونا من ألوان التشاؤم ليس لهم به سابق عهد وبخاصة بعد النكبات والكوارث التى توالت على العالم القديم ، ويقول سيجفريد فى ذلك « وأجدادنا بل نحن أنفسنا أيام شبابنا كنا جميعا نعتقد عن ايمان راسخ لا يتزعزع فى حقيقة التقدم ، ولم يكن فى تصورهم بتاتا أن الأرض الموعودة هى فى المستقبل وليست فى أى مكان آخر » .

ولكن ما معنى قولنا ان هاتين الحربين العالميتين ـ وهما تعتبران نقطتى انطلاق لحوادث جد خطيرة ـ قد غيرتا الدنيا حتى صار الشعور بالثورة ما ينفك يخالج نفوسنا ويطالعنا من كل النواحى ، يرد أندريه سيجفريد على ذلك التساؤل بقوله « أولا كانت هناك ثورة فى التوازن الداخلى للدول فقد تغيرت أحوال السلطة السياسية لأن الحرب الكلية وضعت فى يد الحكومات مجموعة من السلطات ليست سياسية أو عسكرية فحسب وانما هى كذلك اقتصادية واجتماعية وفنية ، وقد انطلقت الحكومات فى ذلك الشوط الى الحد الذى جعل المصالح الخاصة عاجزة عن حماية نفسها لأن صالح المجموع قد غمرها وغطى عليها ، وليس فى نية الحكومات التنازل عن هذه السلطات ، بل هى ستعمل على تدعيمها ، ولكى تبرر ذلك فى نظر الجماهير فانها تستغل هذه السلطات فى اشباع حاجاتها المادية أو النفسية وارواء ظمئها الى المساواة ، ولما كانت الجماهير غير

(١) لم أطلع على الأصل الفرنسى الذى نقله الأستاذ المترجم الى اللغة العربية وانما اطلعت على الترجمة الانجليزية التى قام بها ادوارد فيتزجيرالد ، وحسب الوارد بها ينبغى أن تكون ترجمة هذه الجملة هكذا « المفاهيم التى كونها الناس عن الكون وقوانينه تعرضت لتغيرات عنيفة الى حد أن أصول الآداب المؤكدة وطرائق التفكير اهتزت اهتزازا » .

قادرة على تصريف السلطة التي أصبحت لها من الوجهة النظرية لذلك لم يكن لها معدى عن نقلها الى يد الحكومات ، وقد أفضى ذلك كله الى ديكتاتورية الفرد أو الحزب الواحد أو البيروقراطية ، وفى نهاية ذلك الطريق العبودية فى اطار سنظل بحكم العادة نصفه بأنه ديمقراطى .

ويقول سيجفريد أنه حتى فى المجتمعات الغربية أصبح الفرد غير مستعد لحمل التبعية ولأن يترك وشأنه ، فهو يسال الدولة أن تشرف على أحواله ويلح فى ذلك الطلب ويراه شيئا جد طبيعى ، وموجز القول انه لم يعد حرا ، بل هو لا يعبأ بالحرية لأن أهم ما يشغل باله هو التماس الأمن وحب السلامة ، وغير عجيب فى مثل هذه الحالة أن ينبذ مذهب الحريين ويوصف بأنه من المذاهب البالية التى تولى عهدها وعفى عليها القدم ، وأن يعد الدفاع عن الفرد ضد التنظيم ضربا من الرجعية لأن التنظيم يمثل التقدم .

ولا بد كذلك من التسليم بأن احوال الانتاج الصناعى الحديث غير ملائمة للحرية الشخصية والمبادأة الفردية ، وقد انتقلنا الى مرحلة جديدة سادت فيها التكنيكية التى يرافقها التنظيم والادارة ، وذلك كله مهد السبيل لأن يحل « رجل الجماعات » مكان الفرد الذى يتمتع بحرية لا حدود لها أو بلفظ آخر « الفرد الفوضوى » ، وهذه الأحوال فى مجموعها تغرى الدولة بسوء استعمال السلطة التى سيقت اليها وأصبحت بين يدى الرجال الذين يمارسون السلطة العامة ، والدولة فى هذا العهد تتولى الاشراف على الصحة والاسكان والتموين والأمن العام والعلاقة بين العمل ورأس المال والانتاج الصناعى ولا حيلة للفرد فى معالجة المشكلات المتصلة بهذه الأمور ويخشى أندريه سيجفريد عاقبة هذه الهزة العنيفة غير المسبوقة التى تعرض لها توازن المجتمعات الانسانية فقد تنتهى بكارثة لأن القدرة التكنيكية تتقدم بخطوات جد سريعة تعجز عن ملاحقتها الروح الانسانية ، وانتاج القرن العشرين الآلى الذى يعم العالم فى سرعة متزايدة يفرض نفسه على الانسانية التى لا تزال حالتها النفسية الى حد كبير فى عهد ما قبل علو شأن الصناعة ، ومن ثم قد وجدت هاوية واسعة ، ولا حاجة الى الاشارة للأخطار التى تجىء فى آثار الانتقال الى المبالغة فى التصنيع فى الدول التى لم تأخذ للأمر اهبته ولم تستعد له الاستعداد الكافى ، ولا نزاع فى أن الانتصارات التكنيكية فى العصر الحاضر تسد البصر ، وان المهندس يحل المشكلات التى تواجهه ، ولكن رجل الأعمال والسياسى والعالم الأخلاقى يجدون أنفسهم فى حيرة وهم يواجهون المشكلات الجديدة الناشئة من هذا التقدم ، فكل خطوة جديدة فى التقدم التكنيكى تخلق مشكلة اجتماعية جديدة أو مشكلة اخلاقية لم تكن موجودة من قبل وكان الطبيعة تكلفنا أن ندفع ثمن انتصاراتنا ، والآلة خاضعة لنا وملبية لمطالبنا ولكنها جعلت حضارتنا ترتد الى أنواع من الأخلاق السياسية والأساليب الاقتصادية تستطيع أن تصفها بدون مبالغة بأنها همجية .

وانتصارات عهد الآلة حاسمة وعلى الانسانية أن تتعلم كيف تلائم بين نفسها وبين البيئة التكنيكية الاقتصادية السياسة الاجتماعية الحديثة ، ومثل هذه الملاءمة تقتضى مراجعة آراء الانسان عن الأخلاق واعادة النظر فى موقف الفرد من الجماعة والعمل على أن يسمح الموقف للفرد بالابقاء على حريته الفكرية ، وهذه هى المشكلة الكبرى التى يواجهها الغرب فى الوقت الحاضر كما يرى سيجفريد ، والواقع أن هذه المشكلة لا يواجهها الغرب وحده كما يرى مؤلفنا وانما تواجهها الانسانية جميعها .

ويرى سيجفريد أن بعض دول الغرب التى هى دعائم الحضارة الغربية تواجه هذه المشكلة بقوة دون أن تنظر الى الخلف وبعضها يواجهها بشىء من الأسف على الماضى الذى كان له قيمته وبعضها الآخر الذى لم تكن أوربيته خالصة قد اقبل بكليته على التقدم التكنيكى فى اندفاع همجى الى حد ما ، وهو اندفاع يثير الشك ويجعلنا نسأل هل هذه الدول تعمل حقيقة من أجل الحضارة الانسانية وقد جعل سيجفريد هذه الآراء التى أبداها فى الفصل الأول من كتابه مقدمة لفصول الكتاب التالية التى تحدث فيها عن الواقعية اللاتينية والبراعة الفرنسية وعناد الانجليز وميل

الألمان الى النظام والنزعة الصوفية عند الروسيين وديناميكية الأمريكيين ويختم الكتاب بفصل عن تعريف الحضارة الغربية ومصيرها .

وفى تناوله للواقعية اللاتينية يقول « فى أوروبا روح لاتينيـة لولاها لما بلغت الحضارة الأوربية توازنها المأثور ، وواقعية أوروبا العقليـة تعادل فى الميزان كفة الدينيماكية الانجلوسكسونية ، ولولاها لابتعـد الأنجلو ساكسون عن التقاليد الكلاسيكية ولو اجتثت الجذور اللاتينية من اقصى الغرب فى العالم الجديد لما بقى من غير شك غربى الحضارة ولكنه فى المدى المتطاول سيشق طريقا مختلفا » .

وينكر سـيجفريد ما يسمى الشعب اللاتينى ويسلم بوجود لغات لاتينية تعبر عن تفكير موافق لحضارة ولدت فى منطقة البحر المتوسط ومن ثم فان الروح اللاتينية حقيقة واضحة .

وقد أسهم فى تكوين تلك الحضارة شعوب كثيرة مثل الأيبريين والألبيين والسلتيين كما استوعبت عناصر من النورديين والعرب الساميين ولا ينكر كذلك تأثير العنصر المغولى عن طريق الأتراك فى تلك الحضارة .

ولكن اين الوحدة اللاتينية فى هذا المزيج ؟ ان مؤثرات كثيرة متنوعة أسهمت فى ايجـاد وحدة تلك الحضـارة منهـا التأثير الرومانى وتأثير الكاثوليكية الرومانية والتأثير اليونانى عن طريق روما وعن طريق العرب ، وقد أسـهمت كذلك عوامل كثيرة فى تكوين السيكولوجية اللاتينية مثل العامل الجغرافى والعامل التاريخى ، ولا مندوحة لنا حينما نقدر الحضارة الأوربية عن النظر اليها من زاوية اللاتينية ، والحضارة الغربية الأمريكية تختلف عن الحضارة فى العالم القديم لأنها ينقصها العامل اللاتينى .

ويعنى سيجفريد عناية خاصة ببيان أثر العامل الجغرافى والعامل التاريخى فى سيكولوجية الأمم التى آثر الحـديث عنهـا ، وقـد تزود لذلك بالاطلاع على آراء الجغرافيين المحـدثين كما ساعدته الرحلات الكثيرة التى قام بها فى انحاء الكرة الأرضـية والتنقل فى مختلف الأجـواء



ومراقبة الأحوال السياسية والاجتماعية فى شتى البيئات ، وعنـده أن اللاتين يغلب عليهم نزعة التشكك ، ويندر ان يكونوا بسطاء ساذجين حتى حينما يعتقـدون بالخرافات ، وتفكيرهم واضح المعـالم ، ويستطيعون أن يميزوا بسهولة بين النظرية وبين تطبيقهـا ، وهم ليسوا من أتباع روسو فهم لا يعتقدون أن الانسان مطبوع على حب الخير ولا ثقة لهم فى الانسـان ، وبرغم ما اشتهروا به من الفصـاحة فانهم لا يعلقون أهميـة كبيرة على الكلمات خلافا لما يعتقده الكثيرون ، ويشيد بقدرة اللاتين على التحليل ، ويعلق الفرد اللاتينى أهمية كبيرة على التعبير عن فرديتـه ، والفرد الانجلو سكسونى متواضع ومعتدل ولكنه شديد الاعتزاز ببلاده الى حـد العدوان وهو مدنى بطبيعته ولا يدخر جهدا فى التعاون ، أما اللاتينى فانه يرى الأشياء من وجهة نظره الشـخصية قبل كل شىء ، وهو متكبر ومغرور ويحرص على أن يظهر ويلمع وهو أهل لأن يضحى بنجـاح الجماعة من أجل نجاحه ، واللاتينى والانجلو سكسونى كلاهمـا انانى على طريقتـه ، واللاتينى رجل أعمال واسع الحيلة وحازم وقدير وحسن التدبير » (١) « وهو يضرب بسهم وافر فى المشروعات الصغيرة ، كما أن لديه القدرة على انجاح المشروعات الكبرى ، فهو فى كل مـكان وفى جميع مراحـل عمله يتصف بالمرونة والدبلوماسية ويمارس الدسيسـة ، كما يتمتع بقوة الحجة وصدق الاقناع والقدرة على سوق البرهان على ما يحكم عليه من قضايا » .

وينتقل بعـد ذلك الفصل الى التحدث عن البراعة الفرنسـية ويستهل الفصـل جريا على

(١) راجع صفحة ٣٩ من الترجمة العربية .



طريقتـه بوصف الموقع الجغرافى وبيان أثره فى تكوين الخلق القومى ، وعنده أنه ليس هناك شعب فرنسى لأن الفرنسيين مكونون من سلالات مختلفة ففى الشمال الألمان والسلتيون (أو الألبيون) فى السهل الأوسط والغرب وفى الجنوب المنتسبون الى منطقة البحر المتوسط ، فالفرنسيون خليط من الشعوب وقد أخذوا من اللاتين وضوح التفكير والقدرة على التعبير كما أخذوا من السلتيين الروح الفنية والنزعة الفردية واستمدوا من الألمان القدرة على التنظيم والعبقرية البناءة ، والوحدة القومية الفرنسية ليست قائمة على أصل شعبى لأن الشعوب التى تكونت من امتزاجها الأمة الفرنسية لم تتميز فيها سلالة شعبية على سائر السلالات كما حدث فى انجلترا أو المانيا ، والفرنسيون سواء المنحدرون من أصل ألمانى أو الذين يرجعون الى أصل ألبى أو المنتسبون الى شعب البحر المتوسط يرون أنفسهم متساوين ولا فضل لسلالة على سلالة أخرى وقد وحدتهم البيئة الجغرافية والتقاليد التاريخية .

ويرى سيجفريد أن العبقرية الفرنسية تكشف عن نزعتين متعارضتين ، احداهما سانكو بانزيه والأخرى دون كيشوتية ، احداهما عملية بل أرضية تبدو فى سلوك المزارعين ولكن هذا الجانب من الخلق القومى الفرنسى يقابله من ناحية أخرى نزعة مثالية وتنزه عن الغرض متى ضمن الفرنسى مصالحه ، وهو فى هذه الحالة يستطيع أن يفكر تفكيرا موضوعيا ويسمو على التعصب القومى .

والفرنسى بطبيعته ميال الى الاستقلال وحرية التفكير وهو من أجل ذلك يكره السلطة المفروضة والنظم الجماعية ، وفرنسا فى رأيه أحد الأعمدة الرئيسية التى تقوم عليها الحضارة الأوربية ، وهو يرى ان أنفس ما قدمته فرنسا للحضارة هو الثقة بعقل الانسان ، والفرنسى يعتقد بكل جوارحه أن هناك حقا انسانيا ، وأن عقل الانسان فى استطاعته أن يصل الى هذا الحق وأنه يمكن التعبير بالكلام عن هذا الحق (على الأقل بمساعدة اللغة الفرنسية) وعند الفرنسى ان الفكرة قد وجدت ليعبر عنها ولولا ذلك لما كان لها وجود ، فالفكرة المجردة ليس لها وجود حقيقى ، وهى فى رأيه لا يتحقق وجودها الا اذا اتخذت صورة وشكلا ، وهذا من لوازم وجودها .

ويمضى سيجفريد على هذا النمط فى سائر فصول الكتاب متناولا الخلق القومى البريطانى والألمانى والروسى والأمريكى بالتحليل الدقيق القائم على الدراسة المستوعبة والملاحظات النفاذة مع براعة الأداء وفنية العرض ، ويختم الكتاب بفصل قيم عن تعريف الحضارة الغربية ومصيرها مستدلا على ملامح تلك الحضارة بسمات الخلق القومى التى تبينها فى الأمم الأوربية الرئيسية التى تناولها بالتحليل ، والمنابع التى استمدت منها الحضارة الأوربية متغلغلة فى الماضى ومنوعة ، وعنده أن الحضارة الغربية تقوم على ثلاثة أشياء وهى المعرفة والانسان والتكنيكية فى صورتها الحديثة وهى الثورة الصناعية ، ومن اليونانيين عرف الأوروبيون طرائق التفكير فقد عرف اليونانيون استقلال التفكير وحرروا العقل من أسار السحر والتكهنات والأشياء اللا عقلية ، وقد كان للأشوريين وقدماء المصريين علم وأدب ولكن الشرقيين كانوا يحصون ويجمعون حينما يلاحظون ، واليونانيون كانوا يلاحظون ولكنهم كانوا كذلك يستخلصون القوانين العامة من ملاحظاتهم ، والفرق بين هذين النوعين من الملاحظة فرق فى النوع لا فى الدرجة ، وقد أخذ الأوربيون ذلك عن اليونانيين فهم يلاحظون ويفكرون ويستنتجون ، والرجل الذى يفكر ويعلل ويلتمس الأسباب رجل حر لا يخضع الا للقوانين التى يفرضها على نفسه أو التى يتقبلها ومن ثم اهتمامه بالشئون العامة التى يعتبرها شئونه ،

وقد حارب اليونانيون الفرس بوصفهم رجالا أحرارا ، ويرى سيجفريد أن تصور الفرد من الوجهة السياسية ولد فى بلاد اليونان وان فكرة الديمقراطية وليدة دولة المدينة ، ولا يمكن فصلها عن فكرة الحرية ، وهى نقيض ميول نزوات الطاغية المستبد ، والذى يميز الأوربيين فى رأيه هو كفايتهم العملية ، والأخذ بالتكنيكية الحديثة زود الغرب بالسلاح الفاصل والقوة التى لا تبارى ، والرجل الغربى لا يلتمس النفحات من السماء وانما يحدد غايته ويعمل على تحقيقها بالوسائل التى تكفل له ذلك وهو يتحدث عن الله ولكنه يعمل دون أن يعتمد على معونته .

ويرى سيجفريد أن الخطر الذى يهدد الحضارة الغربية لا يأتى من الخارج وانما يجىء من الداخل ، ولابد لصيانة تلك الحضارة من المحافظة على التوازن بين العوامل الثلاثة السابق الاشارة اليها وهى المعرفة والفرد والتكنيك ، ويقتضى المحافظة على الحضارة أن يظل التكنيك فى خدمة الفرد وأن لا يكون الفرد خادما للتكنيك ، وقد كانت هناك حضارة أوربية قبل الثورة الصناعية ،

ويتساءل سيجفريد « هل نظل محتفظين بالحضارة بالمعنى القديم اذا صارت القدرة الآلية أكثر أهمية من كل اهتماماتنا الأخرى ؟ » كما أن روح المبادأة أصبحت مهددة من ناحية تزايد سيطرة الدولة التى تميل الى جعل الناس نسخا مكررة وهو ما يناقض عبقرية الحضارة الغربية الحقيقية وينفى سيجفريد أن ما يملى عليه هذه المخاوف هو روح التشاؤم لأن مصدرها ما يقع تحت الأبصار فى كل يوم ، فهناك تدخل من الدولة الى حد كبير وهناك اسراف فى التنظيم يبعد عن الطبيعة ، وهذا الاسراف يحمل فى ثناياه جراثيم الشلل ونذر الخطر ، واوروبا فى العصر الحاضر مضغوطة بين عملاقين وهما الولايات المتحدة وروسيا وكتاب سيجفريد يلقى ضوءا على الحاضر والماضى ، وهو حافل بالتحليلات البارعة والمعلومات القيمة والآراء السديدة ومن الكتب التى لا يأسف الانسان على الوقت الذى يقضيه فى قراءتها ، وهو جدير بأن يجد من قراء العربية الاقبال على قراءته ومراجعة آرائه وأحكامه .

على أدهم

سطور من كتاب ...

« هنريتا : ابى ـ يجب ان تسامحها ـ ليس من اجلها ـ بل من اجلك ! كنت اظن انى كرهتك . ولكنى لم اكرهك . انى اشفق عليك ـ انى اشفق عليك .. واذا كنت تشفق على نفسك فسامحها ..

باريت : نعم ـ نعم ـ كلها ... نعم ـ سأنتقم من كلبها ـ !! » .

... آل باريت من شارع ومبول

رسائل فارسية

تأليف
مونتسكيو
ترجمة : أحمد كمال يونس
مراجعة : الدكتور عبد الحميد الدواخلي



مونتسكيو هو شارل لويس دى سيكوندا ، بارون لابريد . وهو من أشهر مفكرى فرنسا وكتابها فى القرن الثامن عشر (١٦٨٩ – ١٧٥٥) . نشأ فى قرية صغيرة اسمها لابريد قرب بوردو من أسرة تجرى فى عروقها الدماء الانجليزية . ماتت أمه وهو فى السابعة من عمره فوجهه أبوه الى مدرسة دينية فلما فرغ من دراسته بها وجهه الى دراسة القانون ولم يكن يميل اليها . ومات أبوه وهو فى الرابعة والعشرين من عمره ولكنه لم يلبث بعد ذلك بسنة واحدة أن عين مستشارا قانونيا لبرلمان بوردو . وفى السنة التالية تزوج من ثرية قليلة التهذيب تتبع المذهب البروتستانتى وفى ١٧١٦ مات عمه فترك له كل ثروته كما ترك له لقبه ووظيفته الكبرى فى البرلمان ومن هذا التاريخ أصبح مونتسكيو رئيسا « ذا قبعة كالقصعة » وهى شعار لوظيفة « الرئيس » فى برلمان بوردو ، الوظيفة التى شغلها مونتسكيو اثنتى عشرة سنة ، وقد نشر «الرسائل الفارسية» فى الفترة الأولى منها . ثم اشتغل بعدة أبحاث فى الفلسفة والسياسة والعلوم الطبيعية وقدمها للأكاديميـة فى بوردو وظفر بكرسى فيها عام ١٧٢٥ ، ثم لم يلبث أن ترك بوردو الى باريس ، بعد أن باع حقه فى منصبه الرسمى مع احتفاظه لولده بالحق فى التمتع به حين يريد . وكان يقضى

الناشر : مشروع الألف كتاب بالاشتراك مع مؤسسة سجل العرب
عدد الصفحات ٣٦٧ ص ١٧ × ٢٤ سم
الثمن ٥٧٫٥ قرشا

شطرا من السنة فى لابريد . وفى عام ١٧٢٨ عين عضوا بالأكاديمية الفرنسية . ثم تقابل مع اللورد شستر بيتى الذى اخذه فى يخته واتاح له زيارة كثير من بلاد أوربا واستقر به المطاف فى انجلترا فامضى بها سنة ونصف سنة لما أنس فى نفسه من ميل الى أهلها اعجابا بهم وبتقاليدهم . وحين عاد الى قريته نسق حديقة بيته على الطراز الانجليزى وبان أثر الانجليز فى حياته اليومية . وفى هذه الفترة كتب كتابا بعنوان « آراء فى أسباب عظمة الرومان وانحطاطهم » . واشتهر هذا الكتاب وأقبل المثقفون على قراءته ، وتبين أن فردريك الأكبر قرأه وعلق عليه وقد استرد نابليون النسخة التى عليها هذه الملاحظات من مكتبة بوتسدام . ويقول كاتب مقال دائرة المعارف البريطانية ان هذا الكتاب يعد أول رسالة فى فلسفة التاريخ ، اذا استثنينا كتابى بوسيه Bossuet ، وجيوفانى ڤيكو ، كما أنه يعد ندا لكتاب تورجو Turgot ، الجزء الثانى من « أحاديث السربون » ، ولو أن كتاب مونتسكيو يمتاز برقة الأسلوب .

بعد هذا بدأ مونتسكيو يكتب كتابه « روح القوانين » ، بدأه عام ١٧٤٣ وختمه عام ١٧٤٨ . ومن الطريف ان مونتسكيو جمع جماعة من اصدقائه ليسألهم رأيهم فى كتابه قبل أن يقدمه للمطبعة فأشاروا عليه بالاجماع بألا ينشره . ولكن مونتسكيو لم يستمع الى نصحهم ، ولما نشر الكتاب وصف بانه من أهم الكتب التى نشرت وقد يكون أهم كتاب فرنسى فى القرن الثامن عشر . وهو من غير شك نتاج عقل يمتاز بالوضوح والأصالة وحسن الفهم بلغة عذبة كالسهل الممتنع .

وفى فبراير ١٧٥٥ مات مونتسكيو فى باريس ودفن فى كنيسة سان سلبيس .

أما الرسائل الفارسية فقد كتبها مونتسكيو اثناء اشتغاله بدراسة القانون ، وكان يريد أن يتسلى عن عمله هذا . ومن الصعب تأريخ كل رسالة على حدة . ولكن المعروف أنه ابان شغله منصب « الرئيس » فى برلمان بوردو عهد الى سكرتيره ، الأب دوڤال ، بأن يذهب بالمخطوط الذى يحوى « الرسائل » الى هولندا وان يطبعه بها سرا . وظهرت الطبعة الأولى منها عام ١٧٢١ حاملة اسم ناشر فى كولونيا ، پيير مارتو . ولكن الواقع أن الكتاب طبع فى أمستردام بهولندا فى مطبعة جاك ديبورد . وفى عام ١٧٥٤ ظهرت طبعة ثانية للرسائل تحمل الاسم نفسه الذى ظهر على الطبعة الأولى . واضيف على الخمسين ومائة رسالة التى طبعت لأول مرة احدى عشرة رسالة جديدة . احداها خاصة بالانتحار وخمس منها خاصة بالحريم وخمس منها خاصة بقصص . وفى الطبعة الثانية روعى التحفظ فى الموضوعات الدينية . وهذا لم يفقد الرسائل حيويتها وذوقها الشرقى .

وكان مونتسكيو يفكر فى ادخال بعض التعديلات على الرسائل فى الفترة التى كانت تعد فيها هذه الطبعة الثانية . فقد عثر باركهاوزن على دوسيه كامل فى أرشيف لابريد عن الرسائل الفارسية وبه كراسة عنوانها « تصويبات على الطبعة الأولى من الرسائل الفارسية التى طبعت فى كولونيا بمطبعة پيير مارتو سنة ١٧٢١ فى جزءين .. نسخة جديدة » .

ويبدو أن الملحق المتضمن هذه التصويبات تم عام ١٧٥٤ ، ولكن هناك اشارة أخرى تدل على أن هذه التصويبات نفسها ليست الأخيرة فقد ذكر مونتسكيو فى أوراقه « انى أعددت تصويبات أخرى وكتبتها على ورق كبير الحجم » . وقد كتب على هذا الورق « تصويبات الرسائل الفارسية ، **النسخة الأخيرة** » . ويشير الكاتب فى هذه الأوراق الى كراسة ثالثة طلب ادماج ما فيها من الرسائل فى رسائل الطبعة الأولى .




وقد تضمنت هذه الكراسة الرسائل التى أضيفت عام ١٧٥٤ بالملحق الذى أشرنا اليه مع حذف رسالة كانت خاصة بالعلماء ورجال الأدب .

وعلى هذا الأساس من درس « الرسائل الفارسية » فى أرشيف لابريد استطاع باركهاوزن أن ينشر فى عامى ١٨٩٧ و ١٩١٣ النص المحقق للرسائل . وهذه الطبعة أصح من طبعة ريشر الذى نشر « أعمال مونتسكيو » عام ١٧٥٨ .

وظهرت للرسائل طبعات كثيرة ، فان حقوق المؤلف لم تكن ذات وزن فى ذلك الوقت ، ومن هذه الطبعات واحدة تستحق الالتفات ، ذلك أنها تمت سنة ١٧٢١ وجعل عنوانها : « الطبعة الثانية أعاد النظر فيها وصححها وحذف منها وزاد عليها المؤلف » . والطابع هو نفسه بيير مارتو فى مدينة كولونيا . وهذه الطبعة تحوى ثلاث رسائل لم تنشر من قبل ، كما أنها تحذف ثلاث عشرة رسالة من الطبعة الأولى ، مما يجعل عدد رسائلها أربعين ومائة ، والرسالة الأولى فى هذه الطبعة هى السادسة فى الطبعة الأولى ، ثم ان كثيرا من الرسائل به بعض التعديل . ويقول كاركاسون فى مقدمته لطبعة باريس عام ١٩٢٩ ان الأمر لا يتعلق بعملية تدليس ذلك لأن الرسائل الثلاث التى زيدت قد ظهرت فى الملحق الذى كتبه المؤلف عام ١٧٥٤ . ومع ذلك فلا المؤلف ولا أصدقاؤه استطاعوا تعليل ظهور هذه الطبعة .

ويعلل ڤولتير — وصلته بمونتسكيو لم تكن طيبة — أن المؤلف غير فى هذه الطبعة وجعلها بحيث ترضى رجال الدين والوزراء ، ذلك لأنه كان يريد عضوية الأكاديمية وكان الكاردينال فلورى غاضبا من الطبعة الأولى وكان على مونتسكيو أن يرضى الكاردينال فبعد انجاز الطبعة المعدلة هذه توجه بنفسه اليه وقدم الكتاب خلوا فى ثوبه الجديد من التهكم على رجال الدين . وقد يكون هذا معقولا . وڤولتير على أية حال لا يقدر الرسائل الفارسية .

والذى لا شك فيه ان فكرة النقد على لسان سائح سابقة على الرسائل الفارسية . من قبل ظهرت رسائل على لسان السيامى (١٦٩٩) ، وفى ١٦٨٤ ظهر كتاب جان پول مارانا « الجاسوس التركى » فى ستة أجزاء من الرسائل القصيرة . وتأثر مونتسكيو بهذه الرسائل الأخيرة واضح ، وشخصية أوزبك عنده هى شخصية الجاسوس عند مارانا او تكاد تكون كذلك . والانتقادات التى تهدف اليها رسائل مارانا هى نفسها أهداف مونتسكيو .

ثم ان رحلة الشاه حسين الى باريس عام 1715 وما ظهر من الآداب الشرقية فى اللغات الأوربية فى ذلك الوقت ، كل هذا كان له أثره الكبير فى كتابة مونتسكيو للرسائل الفارسية . فى ذلك الوقت ظهرت ترجمة للقرآن (ترجمه دى رير) وظهرت

ترجمة الف ليلة وليلة لجالان كما ظهرت كتب رحلات تصف الشرق ، قديمة ومعاصرة ، وكان لكتابى تافرنييه وشاردان أثر كبير فى مونتسكيو . والآداب الفارسية ازدهرت باللغات الأوربية حينذاك وكانت من خير ما يلذ للمثقفين قراءته ، وتأثر بها مونتسكيو بغير شك .

وقد رات وزارة الثقافة والارشاد ، الادارة الثقافية ، أن تخرج « الرسائل الفارسية » الى العربية . وحسنا فعلت . ولكن الترجمة لم تتبع النص تماما بل عدلت بعض الأجزاء التى تمس فكرة الامام والتى تمس تقديس على عليه السلام وآل البيت وما يمس الدين بوجه عام مساسا فيه تجريح . والواقع أن مونتسكيو حين كتب رسائله على لسان السائح الفارسى لم يقصد شيئا عن فارس ولا عن الاسلام . انما قصد أن ينتقد الأوضاع فى فرنسا فى زمنه ، فقصد الى معارضة سلطة الملك ومحاربة فساد أصحاب الاقطاع فى فرنسا والوزراء وما يقترفون من جرائم الرشوة والاستهتار وبيع المصلحة العامة فى سبيل شهوة الحكم . ثم رجال الدين وتسلطهم على الحكام وعلى الشعب جميعا مع ما تنطوى عليه أنفسهم من الرياء والخبث . ولكن مونتسكيو أجرى على لسان أوزبك وريكا كلمات لم يفطن هو الى مالها من قداسة لدى المسلمين فكان لابد لمن يترجم الى العربية أن يحذف هذه العبارات . لم يكن مونتسكيو مطلعا اطلاعا واسعا على الدين الاسلامى ثم على الأصول فى بلاد فارس وتركيا انما كتب ما كتب على أثر قراءات عادية فى المواضيع الشرقية التى كانت شيئا جديدا محببا للنفس فى وقته ، فلما اختار الفارسى ليكتب الرسائل على لسانه تعرض للدين وللمذاهب الاسلامية وقصده الأول هو رجال الدين المسيحى . وكذلك الحال حين تحدث عن البلاط والوزراء وشهوة الحكم والرق وعسف ذوى السلطة بمن يعملون معهم .

ولست أشك فى أن الترجمة العربية ، حتى بعد الحذف والتعديل الطفيف ، تعطى صورة واضحة قوية لنوع من الأدب الفرنسى شاع فى القرن الثامن عشر وهى جديرة بالثناء .

دكتور يحيى الخشاب

سطور من كتاب ...

« أماه ! ترتسم فى ذهنى اليوم صورة الطابع الثانى على مفرق شعرك ، والسارى الذى تعودت أن ترتديه ، بحاشيته الحمراء العريضة ، وعينيك هاتين العجيبتين ، ملؤهما عمق وسلام . ترتسم فى ذهنى وأنا على أول الطريق فى رحلة حياتى ، كأنها أول خيط من خيوط الفجر ينحنى زادا ذهبيا يعيننى على المضى فى طريقى . السماء التى تعطى النور زرقاء ، ووجه أمى كان أسمر ، ولكنها كانت تشع قداسة ، وحسنها يزرى بكل غرور الحسان » .

... البيت والعالم

الشعر الجاهلى

كتاب
مصادر الشعر الجاهلى وقيمتها التاريخية
تأليف الدكتور ناصر الدين الأسد
الناشر : دار المعارف ٧١٧ ص ١٧×٢٤سم
الثمن ١٢٠ قرشا

كتاب
نظرية الانتحال فى الشعر الجاهلى
تأليف الدكتور عبد الحميد المسلوت
الناشر : دار القلم ٢١٤ ص ١٧×٢٤سم
الثمن ٤٠ قرشا

الكتابان يجتمعان على بحث واحد ، وهو النظر فى الشعر الجاهلى صحة وبطلانا ، ويختلفان فى العرض ايجازا واسهابا ، واجمالا وتفصيلا ، من أجل هذا جمعنا بينهما فى مقال واحد .

وأحب قبل أن أدخل بك الى مناقشة ما ضما أن أجمل لك الحديث عن التشكك والتثبت فيما تلقيناه رواية من تراثنا . وليست هذه هى وقفتنا وحدنا تلقاء مروياتنا ، بل هى وقفة الأمم جميعا والشعوب كافة تلقاء تراثها المروى . وقد نكون نحن دون غيرنا أكثر ضبطا للرواية حتى أصبحت علما له قواعده وأصوله ، وأصبح استصفاء الحق من الزيف بهذا العلم شيئا لا يجوز عليه التدليس الا فى القليل .

وهذا العلم الذى أعنيه هو علم الرواية ، وضع المحدثون له أصوله ، وعن هؤلاء أخذ الناظرون فى علوم أخرى ومنها الأدب . غير أن ثمة فرقا فى المرحلة الأولى بين الحديث والأدب ، فلقد نشأ الحديث فى عصر كان فيه التلقى كثيرا وكان المتلقون كثرة ، وكان العصر قريبا من الضبط ، على حين كانت نشأة الشعر الجاهلى فى زمن لم ينضبط لنا فيه عن التلقى والمتلقين شىء كثير ، وحين انبرى الضبط لهذا الشعر الجاهلى كان الزمن قد غير شيئا واضاف شيئا .

قس على ذلك ما لنا اليوم من أدب مروى حرم التسجيل ولا تزال الألسن وسيلته ، مثل الأحدوثة التى لا تزال الألسن تتناقلها ، فهى هى فى جوهرها ولكن الذى لاشك فيه أن الزمن غير منها شيئا واضاف اليها شيئا آخر .

وما من شك فى أن الشعر العربى ترجع نشأته الى قرون قبل الاسلام ، فهذا الفن ببحوره وتفعيلاته لم يكن ليولد متكاملا بين عشية وضحاها ، كما لا يمكن أن يكون صنع عصر بعينه ، بل هو صنع عصور ، وكما نشأت اللغة نشأ هذا الشعر .

ثم ما من شك فى أن ما ضاع من الشعر الجاهلى يربى على ما انتهى الينا منه ، فلقد شعر العرب فى جاهليتهم الأولى يوم أن كانوا على لهجات متباينة ، وشعر العرب فى جاهليتهم الثانية يوم أن تتضاموا على لهجة أو لهجات متقاربة ، والذى وصلنا من هذا كله هو ذلك الذى جرى به اللسان الموحد ، وما يبعد هذا الشعر الجاهلى الموحد الذى انتهى الينا كثيرا عن ظهور الاسلام .

وهذا الذى انتهى الينا لا يمكن أن يكون مادة كاملة لاصدار حكم كامل ، فنحن لم نملك أن نستوعب ما كان للعرب من شعر فى جاهليتهم ، والاستيعاب هو الأصل الأول فى الحكم ، فالقول بأن الشعر الجاهلى غير جاهلى لأنه لم يعبر عن عادات كانت للجاهليين ، ولا يشير الى معتقدات كانوا يعتقدونها ، قول غير سليم لهذا الذى قلناه . ونحن بعد هذا مؤمنون بأن الذى انتهى الينا من هذا الشعر الجاهلى لم يسلم من تغيير ولكنا مؤمنون أيضا أن هذا التغيير يبعد أن يكون

أجنبيا عن مادة هذا الشعر ومظهره ، بل هما منه وعلى شاكلته ، تدخل كلمة من هنا مكان كلمة من هناك ، وتستحدث كلمة لتحل مكان كلمة بفعل الرواية ، غير أنها فى الأكثر تكون لها صورة الأولى ومسحتها وطابعها ، وهكذا عاش الشعر الجاهلى جاهليا ان لم يكنه فى بعض كلماته فلقد كانه بكلمات من صيغتها وجرسها .

وهذه القضية ــ قضية الانتحال بمعناها الذى بسطته لك ــ قديمة ، عرض لها الناقدون القدامى من العرب ، وكما تتعرض القضايا للغلو والقصد تعرضت قضية الانتحال للغلو والقصد ، فاذا فيها الحكم الجائر واذا فيها الحكم العادل .

ويظل العصر الحديث فاذا الذى أثاره الأقدمون يثيره المحدثون ، ولكن الميدان هذه المرة ينتقل الى الغرب ويظهر فيه نقاد غربيون ، منهم الجائرون ومنهم القاصدون ، غير ان الجائرين منهم اشتطوا فى جورهم فاذا هم يتخذون من التشكيك الذى أثاره القدامى حول العرض حجة على هدم الجوهر ، غير ناظرين الى هذه الملابسات التى قدمتها لك .

ولكن سرعان ما أعدى الغرب الشرق ، واذا « كتاب الشعر الجاهلى » يثير هذه القضية على نحو ما أثاره الغربيون من تشكيك بها وينفى الشعر الجاهلى جملة ويصمه بالانتحال .

عندها القى الناس بالا لما كانوا لا يلقون اليه بالا الا فى القليل ، وتحركت الأقلام تكتب فى تفصيل فيما لم تكن تكتب فيه الا فى ايجاز ، وكانت ضجة كبيرة شغلت الرأى العام فترة ثم فترت ، ولكن هذه الهائجة بقيت آثارها عالقة فى الأذهان يلم بها المدرسون فى حجرات الدرس والمؤلفون فيما يكتبون الماما يختلف أسلوبه .

وهذه الضجة التى كاد الناس ان ينسوها فى محيطهم العام لم تنسها الجامعات فى محيطها الخاص ، فاذا السيد الدكتور ناصر الأسد يجعل منها رسالته للدكتوراه ، ثم يجىء فى أثر هذه الرسالة التى طبعت كتابا كتاب الشعر الجاهلى للدكتور شوقى ضيف ، وقد ناقشته فى مقال سابق(١) ، ثم يجىء بعد هذين الكتابين كتاب ثالث هو كتاب نظرية الانتحال للدكتور عبد الحميد المسلوت .

فهذه الكتب الثلاثة تكلمت عن الانتحال ، خلص له هذان الكتابان اللذان بين أيدينا ، وخصه كتاب الدكتور شوقى ضيف بفصل من كتابه ، هو الفصل الخامس الذى يقع فى نحو من خمسين صفحة ، كاد ان يستوعب فيها ما ذكر فى الكتابين فى ايجاز وتركيز ، هذا غير كلمات سابقة وأخرى لاحقة فيها الكثير مما يمس هذه القضية .

والآن بعد أن عرفت معى الكتابين فى اجمال أحب أن أفصل لك الحديث عنهما لنأخذ معا فى مناقشتهما ، فأولها ــ وهو مصادر الشعر الجاهلى ــ يشمل تمهيدا وأبوابا خمسة ثم خاتمة تلخص البحث .

أما التمهيد فيتناول تلك النظرة العامة التى تطالعنا بها كتب الأدب عن العرب فى جاهليتهم ، وهو على ذلك تمهيد قصير لا يتم عشرين صفحة .

ويسلمنا التمهيد الى الباب الأول الذى يتوزع الى فصلين يتناولان الكتابة فى العصر الجاهلى نشأة ورسما ووصفا ، وتربى صفحاته على الثمانين قليلا .

ونجد الباب الثانى ذا فصلين هو الآخر ، أولهما فى تقييد هذا الشعر الجاهلى ، وثانيهما فى تدوينه . ويقع هذا الباب الثانى بفصليه فيما يزيد على ثمانين صفحة بقليل .

ويعقد المؤلف بابه الثالث على الرواية والسماع ويجعله فى فصول ثلاثة ؛ أول هذه الفصول يتناول الرواية بين الجاهلية حتى القرن الثانى ، ويختص ثانيهما بطبقات الرواة ، وينتهى الثالث بالكلام على الاسناد فى الرواية الأدبية . وتستوعب هذه الفصول الثلاثة مائة صفحة .

---

(١) صدر كتاب الدكتور ناصر سنة ١٩٦٢ على حين صدر كتاب الدكتور شوقى سنة ١٩٦١ غير أن الكتاب الأول كان رسالة نوقشت قبل ذلك وان تأخر صدورها .

وإذا ما أدركنا الباب الرابع وجدنا المؤلف يخصه بالحديث عن الشك في الشعر الجاهلي، ويوزع هذا الحديث على فصول خمسة، يجعل الفصل الأول للكلام على المشكلة الهومرية، ويجعل الثاني للكلام على وضع الشعر الجاهلي ونحله عند الأقدمين، ويجعل الثالث لسوق آراء المستشرقين، والرابع لسوق آراء العرب المحدثين، ويخص الخامس بالكلام على توثيق الرواة وتضعيفهم، ويفسح لهذا كله ما يزيد على مائة وخمسين صحفة.

وينتهي المؤلف الى الباب الخامس فيخصه بدواوين الشعر الجاهلي، وقد قسمه الى فصول أربعة الأول منها للدواوين المفردة، والثاني لدواوين القبائل، والثالث للمختارات، والرابع للشعر الجاهلي في غير الدواوين. وهذا الباب بفصوله الأربعة تنتظمه مائة وأربعون صحفة.

أما عن خلاصة البحث - وهي الكلمة التي يطوى فيها صاحب الرسالة الحديث عن رسالته بين يدي لجنة المناقشة - فصحفاتها تبلغ العشرين.

وبعد هذا كله ثبت بالمصادر والمراجع، ثم فهارس عامة للكتاب.

وهذا البحث - كما يملى عنوانه: مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية - يكاد يكفيه الباب الخامس من هذا الكتاب، وهو الباب الخاص بدواوين الشعر الجاهلي، وما جاء قبل هذا من أبواب أربعة استوعبت نحوا من خمسمائة صحفة، هي تمهيد لهذا الباب الخامس، ما نشير باغفالها ولكنا نشير بايجازها في باب أو ما دون الباب حتى لا يطغى التمهيد على غير ما هو تمهيد، ولكنها طبيعة الرسائل الجامعية عندنا نجد فيها الاستيعاب الكثير. ولعل رضى الأساتذة عن هذا مبعثه الحرص على أن يبدأ أبناؤهم قادرين على منافذ الجمع أولا ليكونوا أقوى على أزمة الاستقصاء ثانيا.

ويكاد السيد المؤلف يؤمن معي بأن ما قبل هذا الباب الخامس من أبواب أربعة، هو تمهيد للموضوع وأنه قد أطال فيها، وذلك حيث يقول في صدر الباب الخامس.

« كان حديثنا - فيما مر بنا من أبواب هذا البحث وفصوله - عن المصادر الأولى التي استقى منها العلماء الرواة في القرن الثاني الهجري ما بين أيديهم من شعر جاهلي. وبيان ذلك أننا - حين قطعنا شوطا في دراسة هذا الموضوع - وجدنا أن أخطر ما فيه وأشده غموضا - على خطر كله وغموضه - هو تلك الفترة التي انقضت على نظم الشاعر الجاهلي لشعره الى أن دون هذا الشعر في القرن الثاني الهجري في هذه الدواوين التي وصلت الينا رواياتها. هذه الفجوة الزمنية التي امتدت قرنا وبعض قرن - من آخر العصر الجاهلي الى مطلع القرن الثاني الهجري - هي التي استنفدت القسم الأعظم من جهدنا واستغرقت الجزء الأكبر من بحثنا هذا، وذلك لأن موضوعنا « مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية » فلم نجد من المعقول ولا من المقبول أن نسقط من حسابنا تلك الفترة التي سبقت تدوين هذه المصادر التي بين أيدينا ولا أن نمر بها مرا هينا عابرا ».

هذا هو اقرار السيد المؤلف وهذا اعتذاره. ونحن نسائله:

١ - ما غناء الحديث في توسع عن نشأة الخط العربي وتطوره.

٢ - ثم ما غناء التوسع في أدوات الكتابة في الجاهلية من جلد ومهارق وحبر ودوى وأقلام وسوق الشعر الكثير الذي يشير الى هذا.

٣ - ثم ما الغناء في تكرار ما قيل حول كتاب الشعر الجاهلي بجملته وتفصيله، ولقد كانت الاشارة الوجيزة الى ذلك تكفى والتلخيص المركز يغنى.

٤ - ثم ما غناء التفصيل في المشكلة الهومرية والمدارس التي عنيت بها.

٥ - وهل استطاع السيد المؤلف بعد هذا كله أن يعبر بنا تلك الفجوة التي ذكرها وان يصل ما انقطع.

ما نظن ثمة دليل يستوى على قدميه يثبت أن هذا الشعر الجاهلى دُوّن جاهليا وامتد تدوينه الى أن انتهى الينـــا ، هذا اذا استثنينا تلك النقوش التى عثر عليها اخيرا ، ثم هى على هذا لا تحمل الا القليل الذى لا يعتد به ، ولو رجعنا الى جمع القرآن وذكرنا كيف كانت الصحف وكم كانت لعلمنا علم اليقين كيف كان عجز هـذا الشعر الجاهلى عن أن يبلغنا مدونا ، وانه ليس ثمة وسيلة وصلتنا به غير الرواية ، فاحتجاج السيد المؤلف على أن ثمة مدونات للشعر الجاهلى فرض يأباه الواقع ، وجعله من هذا الفرض فرضا آخر يطوى به تلك الفجوة ضم مستحيل الى مستحيل ، وارادته فى أن يصل بهذين الفرضين حبل الرواية الى مصادرها الأولى رغبة طيبة كنا نتمنى معه أن تتحقق .

ولست بهـــذا انفى الشعر الجاهلى جملة أو أشكك فيه كله ولكنى أثبت هـذا الواقع الذى لا مفر منه والذى خضع له أدبنا القديم ، كما خضعت له آداب أخرى قديمة .

غير أن الشىء الذى لا شك فيه أن كتاب الدكتور ناصر قد أغنانا عن كتب ، وقد ضمن لنا مرجعا واحدا بدلا من التوزع بين مراجع مختلفة ، ثم هو ببابه الخامس ــ الذى هو لب البحث ــ قد خطا خطوة علمية جادة الى استقراء هذا الشعر الجاهلى ، حبذا لو تبعتها خطوات علمية جادة تحقق لنا : معجما جاهليا ، ودلالات جاهلية وخصائص جاهلية بدلا من هذا الجهد المكرر الذى يعيد نفسه ولا يتمخض عن جديد . عندها سوف نملك الحجة الجديدة التى نرد بها على هذا الزعم الجديد ، فلكل عصر مميزاته ، وابراز مميزات العصر الجاهلى هو الدليل الأول والأخير فى هذه القضية ، قضية الانتحال .

ولقد شغلنى الحديث عن هذا الكتاب فكدت انسى به الكتاب الثانى ، ولكنى أجدنى قد تكلمت عن هذا الكتاب الثانى وأنا أتكلم عن الكتاب الأول

فلقـــد خص السيد الدكتور عبـد الحميـد المسلوت كتابه بالحديث عما تحدث عنه السيد الدكتور ناصر فى أبوابه الأربعة الأولى من كتابه لم يختلفا الا فى العنوانين ، والا فى ايجاز وتفصيل، والا فى فصول عارضة زيدت هناك ولم تزد هنا . وبعـد هـذا كان لكل منهما اسلوبه فى العرض وتعقيبه على الرأى .

فلقد تكلم الدكتور عبد الحميد عن : الشعر وروايته قبل الاسلام ، والشعر وروايته فى ظل الاسلام ، والشعر وروايته فى عهد بنى أميـــة ، والرواية والرواة ، والقصص والقصاص ، ورواة الشعر ، ورواة البصرة ، ورواة الكوفة .

تكلم الدكتور عبد الحميد عن هـذا كله فيما لا يزيد عن خمس وأربعين صـــفحة . ثم دخل فيما دخل فيـــه الدكتور ناصر من الكلام على انتحال الشعر وعرض الخلاف القديم الذى ثار حول كتاب الشعر الجاهلى بتفصيله ، وأخذ يدلى فيه بآراء تنضاف الى آراء من سبقوه . واذا هذا كله تستوعبه نحو من مائة وأربعين صحفة .

ولقـد كان من بين مراجـع كتـاب الدكتور عبد الحميـــد كتاب الدكتور ناصر ينقل عنه مرة ويعقب عليه أخرى (١) .

والفرق بين الكتابين كما حدثتك ــ اذا استثنينا الباب الخامس فى كتاب الدكتور ناصر ــ هو هذا الاستيعاب الذى كان للدكتور ناصر ، وهـــذا الايجاز الذى كان للدكتور عبد الحميد .

ولـكن حسب المؤلفين أنهما يؤمنـان بقضية عادلة ، وأنهما يمليـــان عن استيعاب وتحصيل وتدقيق ، وأنهما فوق هذا كاتبان قديران .

ابراهيم الأبيارى

---

(١) انظر على سـبيل المثال ص : ٤٠ و ٥٧ و ٧٣ .

البيان العربي

تأليف

الدكتور بدوي أحمد طبانة

الناشر : مكتبة الأنجلو المصرية

عدد الصفحات : ٣٢٥ طبعة ثالثة ١٧×٢٤ سم الثمن ٨٥ قرشا

لا يزال تراثنـــا فى مزيد من الحاجة الى أيد مخلصة تمتد اليه فى ثقة وايمان لتنفض عنه غبار الزمن ، وتكشف عن وجهه ظلمة السنين ، وتقدمه للقارىء المعاصر فى صورة حية مشرقة تكشف عن قيمتـــه وعن الجهود المخلصة التى بذلت فى انتاجه على طول مراحل التاريخ ليدرك الأدعياء والقاصرون أن العقلية العربية كانت منذ أوائل تاريخها عقلية خصبة خلاقة انطلقت الى كل آفاق الفكر والمعرفة لتخلف لنا ذلك التراث العظيم الذى لا يسعنا ونحن فى عصر الارتقـــاء الفكرى الا أن نحنى الرأس اجلالا له وفخرا به ثم اعترافا بفضل هؤلاء العلماء الأجلاء الذين انقضت حياتهم فى صراع من أجل الارتفـــاع بهذا الصرح الشامخ من العلم والمعرفة فى كل ميـــــدان من الميادين .

وأستطيع أن أقرر فى كثير من الطمأنينة العلمية أن كتاب .. « البيان العربى » قد ملأ فى موضوعه فراغا كان لابد أن يملأ ، وأنه يعتبر خطوة موفقة فى سبيل الكشف عن صورة رائعة من صور التفكير العربى فى موضوع من أجل الموضوعات وأخطرها وأكثرها دلالة على عمق الفـــكر ونضج الذوق ودقة الاحساس ، ذلكم هو موضوع البيان العربى من حيث نشـــأته وتطوره ودلالتـــه ومباحثه ومصادره وأعلامه وقيمتـــه فى مجال الدراسات القرآنية والدراسات الأدبية ، وما الى ذلك من المسائل المتعلقة بهذا الموضوع الذى أحاط الكتاب بأطرافه واستوعب جوانبه وعالج مسائله بمنهج علمى دقيق يعتمد فى الدرجة الأولى على خصب المادة وعمق الدرس ودقة التتبع ويقظة الملاحظة وبراعة الاستنتاج .

ولقد حظى موضوع البيان العربى بألوان من الدراسات المتعة منذ أوائل هذا القرن ، ولكن تظل لهـــذا الكتاب قيمة خاصة تجعله لا يزال متميزا فى بابه متفردا فى موضوعه تلك هى اهتمامه بالتتبع التاريخى الدقيق لنشأة الدراسات البيانية وبيان مراحلها واتجاهاتها ومناهجهـــا مع ربط هذه الدراسات بكافة الملابسات والظروف التى أحاطت بها وقادت اليها ؛ ثم عرض المصـــادر

الكبرى لهـذه الدراسات فى مراحل التاريخ المختلفة مع عناية كبيرة بدراسة هذه المصادر من حيث مادتها ومنهجها ومكانها من الدراسات السابقة وأثرها فى الدراسات اللاحقة ، وهكذا يحس القارىء لكتاب البيان العربى بانه يتابع فى هذا الموضوع سلسلة متصلة الحلقات تمثل كل حلقة منها مرحلة من مراحل هذه الدراسة بحيث لا يكاد يفرغ من قراءته حتى تكون قد استوت لديه معرفة دقيقة شاملة بتطور فكرة البيان العربى مرتبطة بأشهر أعلامها وأكبر مصادرها . تلك هى القيمة الخاصة لهـذا الكتاب من ناحية منهجه ومادته ، وتبقى له بعد ذلك قيمة أخرى تتعلق بدلالته على وعى العقلية العربية فى مجال الدراسات الذوقية ، وكيف أن هـذا الوعى قد استطاع من الناحية النظرية والناحية التطبيقية على السواء أن يلتفت الى كثير من الاشارات النقدية التى تلتقى فى كثير من وجوهها مع بعض نظريات النقد الحديث ، ولقد استطاع الدكتور طبانه من خلال عرضه لمصادر الدراسات البيانية أن يبرز هـذه الاشارات ويحدد قيمتها ولا سيما عند دراسته لصحيفة بشر بن المعتمر وفلسفة الجاحظ لفكرة البيان وكتاب عيار الشعر لابن طباطبا وكتاب نقد الشعر لقدامة بن جعفر وكتاب أسرار البلاغة لعبد القاهر وكتاب المثل السائر لابن الأثير ، ولقد كنت أرجو منه مزيدا من الالحاح على هـذه الناحية حتى يغطى تلك الحلقة المفقودة فى تصورنا المعاصر لفكرة البيان العربى ، وحتى يشهر الحقيقة ناصعة فى وجوه كثير من الأدعياء الذين يزعمون بأن قيم البلاغة القديمة كلها قد وقفت فى تقديرها للنص الأدبى عند حدود الملاحظة الجزئية الشكلية مما جعلها قاصرة عن أن تكونوسيلة صالحةلاكتشاف عناصر الجمال الحقيقية فى الأعمال الأدبية .

وكتاب البيان العربى يدرس ــ كما قلنا ــ تطور فكرة البيان عند الدارسين العرب منذ نشأتها حتى اليوم ، والمؤلف يحدد هذه الدراسة فى تمهيد وأربعة فصول يعرض خلالها موضوع بحثه عرضا موفقا ، وسنحاول ــ فيما يلى ــ أن نتابع ــ فى ايجاز ــ هذه الفصول حتى يمكن أن تتضح للقارىء صورة هذه المحاولة الجادة لابراز ملامح الفكر العربى فى مثل هذا الموضوع الخطير .

يعالج المؤلف فى التمهيد مفهوم كلمة « علوم الأدب » وما كانت تطلق عليه عند الباحثين القدماء مفصلين ومجملين ، وكيف أنها كانت تتناول عند هؤلاء وأولئك كافة العلوم التى يتقوم بها ذوق الأديب وأسلوبه وفهمه ومن جملتها علم البيان الذى كان هو مركز الدائرة لهذه العلوم وان كانت نشأته قد تأخرت عنها لاحتياجه الى امكانيات ثقافية وفنية خاصة ؛ ثم يعالج أيضا كلمة « بيان » من حيث اطلاقها اللغوى ومفهومها الفنى ؛ ثم ينتهى التمهيد ببيان ارتباط نشأة علم البيان بالدراسات القرآنية نظرا لاحتياج الناس الى فهم معانيه وتذوق أسلوبه وادراك نواحى جماله بوصفه معجزة بيانية تقوم أساسا على التفرد بنسقها البلاغى ، وتلك الفكرة هى التى قام عليها الفصل الأول من الكتاب حيث يبسط المؤلف القول فى هذا الفصل عن كيفية ارتباط الدراسات البيانية فى نشأتها الأولى بالدراسات القرآنية ، وكيف كان القرآن هو المجال الأول الذى برزت فيه جهود العلماء لاستنباط ألوان القيم البيانية ومحاولة تطبيقها عليه كنص يرقى ببلاغته فوق كل النصوص ، ومن هنا يتضح أن فكرة الاعجاز القرآنى كانت هى الدافع المباشر لالتماس هذه الدراسات ، ولا سيما بعد أن اتسعت حركة الفتوح ، وأصبحت العناصر الأجنبية فى حاجة الى تذوق النص القرآنى من خلال فكرة الاعجاز التى ترتكز أساسا على التوسع فى تصوير قيمه البيانية ؛ ومن هنا فقد اتجهت عناية الباحثين الى دراسة المجاز فى القرآن الكريم بوصفه مظهرا من مظاهر البلاغة القرآنية وصورة من صور اعجازها ، ولقد ظهرت فى هـذا المجال مجموعة من الدراسات الخصبة التى تعتبر من أقوى الدعامات التى قامت عليها البحوث البيانية اللاحقة منها : « مجاز القرآن » لأبى عبيدة معمر بن المثنى ، و « مشكل القرآن » لابن قتيبة ، ثم « تلخيص البيان فى مجازات القرآن » للشريف الرضى . وللمؤلف مع كل كتاب من هذه الكتب وقفة طويلة يدرس فيها خطته ،

ويناقش مادته ، ويوضح طريقته في تقسيماته وتفريعاته ، ثم يشرح منهجه في دراسته لأنواع المجازات القرآنية والمفاضلة بينها وبين مجازات الآثار الأدبية الأخرى ، وكيف يمكن استخلاص فكرة الاعجاز على أساس هذه المفاضلة ، وهو في كل هذا لا ينسى الهدف الأساسي الذي عقد له الفصل الأول من كتابه ، وهو أن نشأة الدراسات البيانية كانت مرتبطة أوثق الارتباط بالدراسات القرآنية وبخاصة تأكيد فكرة الاعجاز ، ثم نلتقي في هذا الفصل أيضا بصورة أخرى من صور النشاط الفكري في هذا المجال ممثلة في مجموعة أخرى من الأبحاث الرائعة في البلاغة القرآنية مثل: « النكت في اعجاز القرآن » للرماني ، وهو من أمهات الكتب التي عنيت بتفصيل القول في الاعجاز القرآني واثبات أن هذا الاعجاز أساسه البلاغة ، ثم « اعجاز القرآن » للباقلاني ، وهو صورة رائعة لحذق علماء الكلام لصناعة البيان ، ثم « بدائع القرآن » لابن أبي الاصبع وهو كتاب يجتمع فيه جهد السابقين من علماء البلاغة ، ويجمع كل ألوان البديع ويطبقها في براعة على آي القرآن الكريم . وسلوك المؤلف مع هذه الكتب هو نفس سلوكه مع سابقتها من تعمق دراستها وتوضيح مناهجها ومناقشة مادتها وبيان قيمتها .

ثم تلتقي بعد هذا بالفصل الثاني الذي يعالج موضوع البيان في مجال الدراسات الأدبية بعد أن عالجه الفصل الأول في مجال الدراسات القرآنية . وفي بداية هذا الفصل يناقش المؤلف مفهوم كلمة أدب والدعامات التي يرتكز عليها هذا المفهوم ، وكيف أن هذه الدعامات هي غاية ما يشغل علماء الأدب ونقاده مهما تباعدت بينهم الأزمنة واختلفت لديهم طرق التناول ، ثم يتطور المؤلف بفكرة البيان الأدبي في دراسته لأهم أبحاثها ومصادرها كصحيفة بشر بن المعتمر التي تعتبر من أقدم الوثائق البلاغية والتي تضع كثيرا من الأسس النقدية من حيث الشكل والمضمون .

والخطة الابداع ؛ ثم كتاب « البيان والتبيين » للجاحظ وما اشتمل عليه هذا الكتاب الرائد من فنون البيان وألوانه والطريقة الفذة التي عالج بها الجاحظ موضوعاته في مناحيها المختلفة ، ودفاعه عن البيان العربي لمقاومة دعاوى الشعوبية ، وما الى ذلك من الدراسات التي بذلها المؤلف لاظهار قيمة هذا الكتاب ؛ ثم يتتبع المؤلف فكرة البيان بعد الجاحظ ويرقب أثر كتابه « البيان والتبيين » ويحدثنا في تفصيل ممتع عن كتاب « البرهان في وجوه البيان » لأبي الحسين اسحاق بن وهب ، وكتاب « قواعد الشعر » لثعلب وكتاب « البديع » لابن المعتز ، فيوضح لنا قيمة هذه الكتب وما اضافته من زيادة في التقسيمات والأنواع ، ثم يستطرد الى دراسة التفكير البياني في القرن الرابع ، ويبين كيف اتسعت - آنذاك - دائرة هذه الدراسة ونضجت وتنوعت ومالت الى التخصص بعد تعدد روافد الثقافة واتساعها ؛ ثم يعرف بمجموعة من الأبحاث العميقة في هذا القرن مثل كتاب « عيار الشعر » لابن طباطبا وكتاب « نقد الشعر » لقدامة و « الموازنة » للآمدي و « الوساطة » للجرجاني و « الصناعتين » لأبي هلال و « الصاحبي » لأحمد بن فارس ، ومع هذه الأبحاث كلها تتأكد قدرة المؤلف على عمق الدرس ودقة التتبع ، فيعرض مادتها ويوضح منهجها ويوازن بينها ، ثم يمضي الى دراسة فكرة البيان في القرن الخامس ، ويقرر أن هذا القرن كان مرحلة النضج والاكتمال لدراسة البيان العربي حيث تنضج ثمار تلك الجهود التي بذلت في مدى القرنين الثالث والرابع .. وفي أوائل القرن الخامس يظهر كتاب « العمدة » لابن رشيق الذي لم ير فيه المؤلف شيئا من الجدة وانما هو وقوع على ثمرات السابقين وجمع لرواياتهم . أما كتاب « سر الفصاحة » لابن سنان الخفاجي ، وكتابا اعجاز القرآن وأسرار البلاغة لعبد القاهر فهي التي تمثل نضج الدراسات البيانية في هذا القرن ، ثم يعرض المؤلف هذه الكتب الثلاث بوعي ودقة ، ويدرس من خلال هذا العرض نظريات البيان وموضوعاته عند كل من الخفاجي وعبد القاهر وما هو الجديد لديهما من هذه النظريات وتلك الموضوعات وبخاصة عبد القاهر الذي أسهب المؤلف في الحديث عن كتابيه بما يجلي عبقريته في مباحث البيان وفنونه المختلفة ، وكيف أن مكان

عبد القاهر الحقيقى بهذه المباحث ليس فى عالم البلاغة بمفهومها الاصطلاحى بقدر ما هو فى عالم النقد الأدبى ، وهـــذه لفتة جديرة بالاعتبار اذا لاحظنا منهج عبد القاهر فى علاجه للقيم البلاغية ، وكيف أنه نحا بها منحى جماليا يعتمد على التطبيق أكثر مما يعتمد على التقعيـــد .. ثم يستطرد المؤلف فى تتبع فكرة البيان بعـــد عبد القاهر ، ويعرض فيما عرض من أبحاث كتابا من أهم الكتب وأنضجها فى ميدان الدراسات البيانية ذلكم هو كتاب « المثل السائر » لابن الأثير ، ويبرز المؤلف فى دراسته لهذا الكتاب جملة مســائل جديرة بالتقدير فى تفكير ابن الأثير أهمها مسألة وحدة العمل الأدبى ، وكيف أن الوحدة فى العمل الشعرى ليست وحدة البيت ولكنها وحدة القصيدة ، ومن هنا فقد عاب على النقــاد القدماء موقفهم من التضمين ، وقرر أن أبيـــات القصيدة مترابطة وليست مستقلة وتلك نقلة هائلة نحو القيم الكلية فى التفكير البيانى وان كنا فى الواقع نرى شبيها لها فى دراســـة الحاتمى وابن طباطبا فى القرن الرابع .

وبعد هـــذا نلتقى بالفصل الثالث من الكتاب وموضوعه « البيان البلاغى » ولعل مرد هــذه التسمية من وجهة نظر المؤلف يرجع الى انتقال الدراسات البيانية من مجال الذوق الى مجال التقعيـــد ، وربط البحوث البيانيـــة ببحوث الاستدلال والنحو التى هى أبعـــد ما تكون عن طبيعة الفن الأدبى الذى هو موضوع علم البيان ، والأثر العلمى الذى يعطينا النمط الواضح لهـــذه الدراسة هو كتاب « مفتاح العلوم » لأبى يعقوب السكاكى الذى عالج موضوع البيان بعقلية ليست بيانية على حد تعبير المؤلف ؛ فخلط دراسة البيان بالنحو والصرف والمنطق والعروض فصرفه عن قصده وبعد به عن غايته ، ويمضى المؤلف ـــ على طريقته ـــ فى مناقشة السكاكى فى فصول كتابه وفى منهجه ، ويشير دائما الى قصوره فى تحرير الدراسة البيانية الفنية من سيطرة المنطق ، ثم يعجب بعد هذا من تهافت العلماء على هذا الكتاب واقبالهم على شرحه ودرســه ، والحق أن كتاب السكاكى بهذه الصورة يعتبر نكسة فى الدراسات البيانية اذا قيس بما قدمه لنا ابن طباطبا فى كتابه « عيار الشعر » وعبد القاهر فى كتابيه « اعجاز القرآن وأسرار البـــلاغة » ثم ابن الأثير فى كتابه « المثل السائر » .

وفى الفصل الرابع والأخير من الكتاب يتتبع المؤلف فكرة البيان الغربى فى الدراسات المعاصرة، ويمهد لهذا بكلمة ضافية ينعى فيهـــا على تلك الاتجاهات المدمرة التى تحاول أن تغض من قيمة هـــذا البيان محتمية ببعض الدعاوى الزائفة ، ويشير المؤلف بوجه خاص الى قضيـــة « الأدب الهادف » وكيف برر بعض المتشيعين لهـــذه القضية اهمال الناحية الجمالية فى التعبير الأدبى بحجة ان قيمـــة الأدب فى مضمونه لا فى شكله ؛ فما دام الأدب يعالج مضمونا واقعيا انسانيا فهو أدب بصرف النظر عن فنية التعبير .

وأريد بهذه المناسبة أن أطمئن الدكتور طبانة بأن الخرافة القـــائلة بأن المضمون فى ذاته حقيقة فنية جميلة بغض النظر عن جمال الشـــكل قد انتهت تماما ، وأصبح من البديهيـــات المسلمة فى مجال الدراسات النقدية الحديثة أن الفن مضمون وشكل ، وأن القيمة الفنية لكل عمل أدبى تتقوم من خلال هـــذين العنصرين .. أما كتاب سلامة موسى فى « البـــلاغة العصرية واللغة العربية » فما أحراه بتلك المناقشة الحادة التى أثارها فى وجهه الدكتور طبـــانة ، وحسبنا أن مثل تلك الدعاوى الباطلة لم يتح لها فى يوم ما أن تصمد أمام هذا الوعى الذى ينمو دائما بميراثنا الأدبى ولغتنا الفصيحة .. وأخيرا يعرض المؤلف طائفة من الأعمال النقية المخلصة فى مجال الدراسات البلاغيـــة ممثلة فى كتاب « دفاع عن البلاغة » للأستاذ الزيات ، وكتاب « الأسلوب » للأستاذ أحمد الشايب ، ثم كتاب « فن القول » للأستاذ أمين الخولى ويناقش المؤلف فى كثير من الرضى والتفاؤل هذه الأعمال الجليلة ، ويرى فيها امتدادا طيبا لتلك الجهود المخلصة التى بذلت على طول مراحل التاريخ لارساء فكرة البيان العربى على أسس واضحة محددة .

دكتور عبد الحكيم بلبع

تاريخ الاسلام فى الهند



تأليف
عبد المنعم النمر

الناشر : دار العروبة
٤٨١ ص ١٧×٢٤سم
الثمن ٦٠ قرشا

يعتبر كتاب تاريخ الاسلام فى الهند من باكورة الجهود التى بذلها عالم من العلماء العرب فى مجال توطيد روابط الثقافة العربية والهندية وهذا الكتاب الضخم يقع فى ٥٠٠ صفحة ، يبدأ بالمقدمة التى وصف فيها المؤلف الدواعى التى دفعته الى تأليف هذا الكتاب ، ومن أهمها أن الأمة العربية فى العصر الحديث لا تكاد تعرف أن الهند كانت مجد الاسلام وحاملة لواء الحضارة الاسلامية لعدة قرون ، ولم تفقد هذه الأمة امبراطوريتها الاسلامية الا منذ مائة عام فقط ، وذلك بعد ان احتل الانجليز بلادهم وحاولوا مكرهم وخداعهم وحاربوهم بسياسة التفرقة بناء على مبدئهم وسياستهم « فرق تسد » وذلك بين صفوف المسلمين

ثم كتب عنوان « أضواء على الهند » حاول تحت هذا العنوان أن يعطى فكرة عامة عابرة عن الهند فى القديم والحديث ففى القديم تحدث عن الحضارة الهندية ونزوح الآريين الى الهند وتراثهم الفكرى مثل كتاب « فيدا » .

ثم تناول موضوع غزو الاسكندر للهند ، واديان الهند القديمة وفرقها وطوائفها ، وكذلك تحدث فى هذا الباب عن التقاليد الهندية العامة كما شاهدها أثناء زيارته وتجواله أنحاء الهند وتقاليد الهندوس وعباداتهم . وعقائدهم وتقديسهم للأصنام والحيوانات ، ثم أضفى البيان فى طبقة المنبوذين وما تعانيه هذه الطائفة من الاهانة والازدراء والعناء والتعب من الهندوكيين والمسلمين على السواء .

ثم تطرق بحثه الى اللغات العديدة فى الهند وما تعانيــه الهند من المشــاكل بسبب كثرة اللغــات .

ثم تحدث تحت عنوان « الزحف الاسلامى نحو الهند » وعن الأسباب والعوامل التى دعت الى دخول الاسلام الهند ، وكيف زحف الجيش الاسلامى بقيادة محمــد بن القاسم الى الهند فى عصر الوليد بن عبــد الملك بأمر من الحجاج ابن يوسف ؟ وما هى الاماكن التى فتحها وضمها الى ممتلكات الدولة الاسلامية ؟ وما هى الأسباب لوقف هذا الزحف ؟ وأنهى كلامه بعد عودة محمد ابن عبـد القاسم الى دمشق ، حيث قتله الخليفة سليمان بن عبـد الملك انتقاما من الحجاج الذى كان من الد اعدائه ، ومحمد بن القاسم كان ينتمى الى أسرة الحجاج .

ثم سلك المؤلف منهج مؤرخى الهند فى تقسيم الهند بموجب العصور بعد هذه الفترة ، فالهند تنقسم الى العصور الآتية : ـ

١ ـ عصر الغزنويين (٣٨٧ هـ ، ٩٩٧ م ـ ٥٧١هـ ـ ١١٧٥ م) بدأ هذا العصر اثر الفتوحات التى احرزها محمود بن سبكتكين الغزنوى الذى تولى قيــادة البلاد الاســلامية بعد سقوط السامانيين ، وحاول المؤلف فى هذا الباب الاعراب عن عطفه واعجابه وتقديره لهــذا الفاتح الكبير ونفض الغبار عنه الذى اثاره بعض المؤرخين .

٢ ـ عصر الغوريين (٥٧١ هـ / ١١٧٥ م ، ٦٠٢ه / ١٢٠٦ م) بعد انقراض الدولة الغزنوية فى كل من خراسان وما وراء النهر والهند ، نهض الغوريون ، ولمعت نجومهم فى الآفاق بظهور محمد الغورى الذى فتح الهنــد ، وهو أول من أولى عنايته لانشاء الدولة الاسلامية فى الهند حينما اكتفى محمود الغزنوى بحمل خيرات الهند من ذهب وفضــة الى بلاده « غزنة » حيث أنشا المدارس والمساجد .

٣ ـ عصر المماليك (٦٠٢/١٢٠٦ ـ ٦٨٨ / ١٣٩٠) والسبب فى تسميته بعصر المماليك أن محمـد الغورى لم ينجب اولادا ذكورا ولا اناثا يرثون الملك بعد وفاته ، ولذلك تولى حكمه بعد وفاته مماليكه الثلاثة ، ومن أهمهم : قطب الدين ايبك الذى تولى عرش « دهلى » .

٤ ـ عصر الخلجيين (٦٨٩ هـ / ١٢٩٠ م ـ ٦٩٥ / ١٢٩٦ م) تحدث عن جميع ملوك هــذه الأسرة ، ومن أهمهم : عـلاء الدين الخلجى اعظم ملك فى هذه الأسرة الذى وصل غزواته الى ناحية جنوب الهنــد لأول مـرة فى تاريخ الحروب الاسلامية ، اذ أن جنوب الهنــد انتشر فيه الاسلام بجهود التجار العرب والمصلحين .

٥ ـ عصر التغلقيين (٦٨٩ هـ / ١٣٢٠ م ـ ٨٥٤ هـ / ١٤٥٠ م) لقد كتب المؤلف تلك الكلمة بالطاء ، أى : « الطغلقيين » ، وليس لدى سبب لهـذا التغيير ، اذ أن هذا الاسم يكتب بالتاء فى الأردية .

قد ذكر المؤلف ملوك هــذه الأسرة ، ومن أشهرهم : محمد بن تغلق الذى وفد على بلاطه ابن بطوطة الرحالة الشهير ووصفه وصفا رائعا يعتبر من اهم المراجع لدراسة هذا العصر .

٦ ـ ثم دب الضعف والانحـلال فى الدولة الاسلامية المركزية وقامت دويلات شتى فى جميع أنحاء الهند ، وهذا العصر يعتبر بمثابة عصر ملوك الطوائف فى المشرق العربى ومغربه .

٧ ـ ثم قامت دولة اللوديين بقيادة بهلول لودى (٨٩٤ هـ / ١٥١٧ م ـ ٩٢٢ هـ / ١٥٢٦) التى قضى عليها بابر اعظم الملوك المغول .

٨ ـ عصر المغـول (٩٣٢ هـ / ١٥٢٦ م ـ ١٢٧٣ هـ ـ ١٨٥٧ م) قد أوفى المؤلف البحث فى دولة المغول وكيف قامت ؟ وما هى أهم مميزات هذا العصر ؟ ، وحاول قــدر ما استطاع ابراز مميزات كل ملك من ملوك هــذه الأسرة وميوله الخاصة ، كان بابر منشىء هذه الدولة ـ رغم نبوغه العسكرى ـ يملك ملكة أدبية جياشة وألف كتابه الشهير « بابر نامه » الذى يعتبر آية الأدب فى اللغة التركية القديمة .

« وهمايون بن بابر » وان كان أضعف ملوك المغول قاطبة الا أنه اشتهر فى الفلك والرياضة ، وله جولات واسعة فى هذا الميدان ، وأكبر ثالث ملوك المغول قام باصـــلاحات عظيمة وأصبح مسيطرا على أنحاء الهند وازدهرت فى بلاطه الفنون والآداب ، ولكن وجـدت فيه متناقضات كثيرة ، ومن أهمها : عدم اهتمامه بالاســـلام ، وايمانه بوحدة الأديان وانشاؤه دينا جديدا يسمى الدين الالهى .

كان « جهانكير » من اقـوى ملوك المغول التى ظهرت فى عهده الدعوة الاصلاحية على يد المجدد الشهير أحمد السر هندى .

كان شـــاهجان أكثر الملوك ولوعا بالبنـــاء والعمارات وهو الذى أنشأ « التاج محل » الذى يعتبر من عجائب العالم وآية فى الفن الاسلامى .

كان « أورنكزيب » أعظم ملك فى الهنـــــد الاسلامية الذى وجه عنايته الى الشريعة وتطبيقها فى ربوع الهند . كانت حياته صـــورة صادقة للخلفاء الراشدين وأمثال عمر بن عبد العزيز .

ثم دب الضعف والانحلال وتسرب الى الدولة المغولية ، وبدأ احتلال الانجليز رويدا رويدا بعد ان قامت دويلات شتى فى أنحاء الهند بدلا من الدولة المركزية الموحدة ، ومن أهمها :

١ ــ حكومة دهلى . كان يحكمها الملوك الضعفاء من الأسرة المغولية .

٢ ــ كلكتا ــ كان يحكمها سراج الدين .

٣ ــ لكهنو كان يحكمها ملوك الشيعة .

٤ ــ حيدر آباد ــ كان يحكمها الملوك من عائلة « نظـــام » .

٥ ــ مدراس ــ كان يحكمها محمد على .

٦ ــ ميسور ــ كان يحـكمها حيـــدر على والسلطان تيبو .

ثم أفاض البحث فى الثورة الهنـــدية التى اندلعت فى ١٨٥٧ م ضد الانجليز وكادت أن تقضى عليهم .

وبعد هذه العجالة السريعة والتلخيص يجدر بنا ان نذكر أهم مميزات هذا الكتاب : ــ

١ ــ قد بذل المؤلف جهودا متفانية لفهم تاريخ الهنـد فى أدواره المختلفة حتى وفق فيه مع أنه



واجه صعوبات جمة من حيث اللغة ، لأن تاريخ الهند يحتاج لتاليفه ودراسته دراسة صحيحة سليمة الى الالمام التام بثلاث لغات هى : الأردية والفارســية والانجليزية ، اذ أن جميع المراجع الهامة منتشرة فى هذه اللغات فالمؤلف ــ وان لم يتعلم هذه اللغات الثلاث ــ استطاع الاتصال بمن يجيدها ، كما عرض على المتخصصين فى التاريخ الهندى صعوباته ورغبته الأكيدة فى تأليف تاريخ الهنـد ، رغم الموانع والعوائق التى تعرض لهـا ووقفت حائلا دون تحقيق رغبته ، لقد مد هؤلاء اليه أيديهم فى اعــداد ما يطلبه منهم عن طريق الاقتباسات والترجمة من هذه اللغات الى اللغة العربية حتى استطاع المؤلف تأليف هذا الكتاب القيم وتذليل جميع الصعوبات التى اعترضت طريقه ومنعته من السير .

وللمؤلف منة كبيرة ويد بيضاء على المسلمين الهنود لانه فى مقامه القصير فى الهند لم يكتف، بأداء مهمة التدريس التى أسندت اليه والتى قام بها خير قيام على أكمل وجه فى مدرسة «ديوبند» بل كرس جهوده أيضا فى دراسة تاريخ الهند ، كما يدرس طالب مجتهـــد لاعـداده رسالة فى الدراسات العليا ثم قدم للأمة العربية « تاريخ المسلمين فى الهند » الذى دام قرابة تسعة قرون وبهذا يعتبر الكتاب اضافة جـــديدة الى اللغة العربية فى مادة التـــاريخ ، لأن العلماء والكتاب العرب لم يوجهوا ادنى عناية نحو دراسة تاريخ

الهند دراسة شاملة واعية كما عنى به أسلافهم مثل المسعودى ، والبيرونى ، وابن بطوطة وغيرهم ، اللهم الا محاولات لبعض جوانب تاريخ الهند بذلها بعض الكتاب العرب المشهورين امثال الدكتور أحمد أمين الذى أعطى للهند مكانة مرموقة فى كتابه « زعماء الاصلاح » والأستاذ المرحوم « عباس محمود العقاد » فى بعض كتبه ، والأستاذ على ادهم والدكتور الساداتى والدكتور محمد البهى فى كتابه « الفكر الاسلامى » ولكن الحاجة كانت ملحة — ولم تزل — لوضع كتاب مستقل فى تاريخ المسلمين الهنود ، فالشيخ عبد المنعم النمر قام بدوره بأداء هذه المهمة وسد هذا الفراغ بجهوده الجبارة المشكورة .

٢ — لم يكتف المؤلف بسرد الأحداث كما قرأها أو نقلها من الكتب ، بل حاول أيضا ابراز شخصيته بتعليقاته على هامش الأحداث ، ونقده ومشاهداته التى أضافها الى كتابه بعد أن اتيحت الفرصة النادرة له للقيام بتجواله ورحلاته العديدة فى جميع أرجاء الهند ورؤيته الآثار الباقية التى خلدها الملوك المسلمون على مر العصور .

وأول ما يذكر بهذا الصدد أنه أشبع الباب الذى كتب تحت عنوان « أضواء على الهند » بمشاهداته لمراسيم الهند وتقاليدها فى مختلف المناسبات والغابات الهندية والأشجار والديانات ، فمثلا قال فى الأشجار : وقد شاهدت فى الهند أشجارا لم أرها فى حياتى ، كما شاهدت كذلك أزهارا غريبة فى ألوانها وروائحها ، وكثيرا من الفواكه والمحصولات التى لا نزرعها فى مصر مع اعتقادى أنه يمكن زرعها لو عنينا بزراعتها « ص ٩ » .

... وحينما تحدث عن الدين الالهى الذى ابدعه الامبراطور المغولى جلال الدين أكبر لم يمر سريعا بهذا الحدث الخطير بل وقف فيه وقفة العالم المحقق يفند آراء « اكبر » وعقائده شأنه فى ذلك شأن العلماء المخلصين الأزهريين ، وكذلك اتخذ موقفا عادلا تجاه الامبراطور محيى الدين اورنكزيب الذى اتهمه الأعداء بأنواع من التهم مثل التعصب والتزمت .

وأحسن مانرى فى هذا الصدد رأيه فى عدم انتشار الاسلام بين المنبوذين الهنود ، مع أن المسلمين حكموا الهند ما يقرب من تسعة قرون ، قال فيه المؤلف — وهو على صواب فى رأيه هذا — « على أن الحكام المسلمين الذين حكموا الهند أكثر من ثمانية قرون لو وجهوا عنايتهم الى هؤلاء « أى المنبوذين » لأمكن لهم أن يحققوا غرضهم ، فقد كانت الدولة الاسلامية حينذاك قادرة على أن تسن لهم القوانين التى ترفع مستواهم ، وتفتح لهم المدارس ، وتعاونهم بالمال ، وتعاملهم معاملة حسنة تشعرهم بما فى الاسلام من حرية ومساواة واخاء وحينئذ كان من الممكن أن يقبلوا على الاسلام وهم عشرات الملايين ، ولكن لم يتجه الحكام لمثل هذا فظل المنبوذون كما هم منذ أن حكمت عليهم شريعة « منو » بأن يبقوا داخل نطاق طائفتهم لا يخرجون عنها ولا يرتفعون الى غيرها : الأولاد يرثون الآباء فى ضعتهم ومهانتهم ، ولا ننكر — مع هذا — أن بعض هؤلاء المنبوذين دخلوا الاسلام بفضل بعض الجهود الفردية للمسلمين ، فوجدوا معاملة طيبة ، وكانوا هم وجميع المسلمين سواء الا فى ناحية الزواج » .

ثم علق فى الهامش على هذا القول قائلا : تتحكم فكرة الطبقات بين المسلمين فى ناحية الزواج على الأخص فهم اما صديقى او فاروقى أو عثمانى أو سيد « أى الشريف » نسبة الى الخلفاء الأربعة .. الخ (ص ٣٢ — ٣٣) .

٣ — وأروع ما كتب المؤلف هو بابه الأخير تحت عنوان : —

« الثورة الهندية » ولعل سبب اجادة هذا البحث يرجع الى اقامته فى مدرسة « ديوبند » التى ظلت مهد الثورات التحررية . لأن الرعيل الأول لهذه المدرسة كرسوا حياتهم فى سبيل النضال والكفاح لنيل الاستقلال وطرد الانجليز .

وبعد ابراز هذه المحاسن يحسن بنا الرجوع الى ما أورده المؤلف فى مقدمة هذا الكتاب ، وهو قوله :

« فهـذا هو الكتاب بين يديك ، يقدم نفسه بنفسه ، لا ادعى أننى قد بلغت فيه درجة العصمة من الخطأ ، فهذا مستحيل ، ولكن الذى يمكن أن ادعيه اننى بذلت اقصى جهـد أملكه فى تقديمه اليك بصورة وافية تنبئك عن هذا التاريخ المجيد ، فان وجدت فيه نقصا أو خطأ فانى أكون شاكرا لو تفضلت بتنبيهى اليه ، حتى أتداركه فى طبعته الثانية التى أعتقد أنها ستضم زيادات وتنقيحات مما يمكن أن تمدنى به وتدلنى أنت عليه ، وما يمكن أن أضمه اليه من معلومات جديدة تتكشف لى ، فهذه طبيعة الأشياء دائما : فى تطور » .

حقا لا يمكن لأحد ادعاء أنه اجاد بحثه اجادة تامة لا يمكن فيه الجدل أو المناقشة ، بل وفى هذا الكتاب الذى يؤرخ لأمة كبيرة دام عهدها فى الحكم قرابة تسعة قرون ، يمكن أن تبقى فيه ثغرات تحتاج الى ملئها فى الطبعة الثانية ولا سيما اذا قدرنا الظروف الصعبة التى واجهها المؤلف أثناء تأليف هذا الكتاب ، وهى عدم توفر جميع المراجع والمصادر فيما يتعلق بهذا الموضوع ، وعدم اجادته اللغة الأوردية وكذا الفارسية والانجليزية أيضا التى هى حافلة بهذه المصادر ، ولذا سوف أبدى ملاحظاتى كطالب مغرم بتـاريخ الهند الاسلامية وحضارتها من ناحيتين :

١ ــ أولاهما : الناحية الموضوعية .

٢ ــ ثانيتهما : فى المراجع والمصادر .

ففى الأولى سنذكر بعض الجوانب الهامة التى أغفلها المؤلف مع أنها فى حاجة ملحة الى تبيانها وبدونها لا يتم هذا التاريخ وهى كما يلى : ــ

١ ــ ففى الباب الأول حين تحدث عن غزوات محمد بن القاسم فى الهند ختم البحث عن محمد ابن القاسم دون أن يتعرض لخلفائه الذين حكموا الهند من جانب الخلفاء فى دمشق ثم فى بغـداد حتى سنين طويلة . لأن هذا البحث وثيق الصلة بالعلاقات العربية والهندية اذ أن العرب حكموا الهند فى هـذه الآونة مباشرة ، وتبادلت بينهما علاقات كثيـرة ، ومن أهمها الناحية الثقافية والدينية ، وينبغى لنا ان نذكر ــ بهذا الصدد ــ أن الأمير داود بن نصر بن وليد النعمانى تولى أمر السند بعد محمد بن القاسم ، ثم ظل يحكمها ولاة الأمويين فى دمشق سنين طويلة حتى وقعت الفرقة فى صفوف العرب ودبت بينهم الخصومات والمنـازعات مما أدى الى قيام دويلات شتى فى أنحاء ولاية السـنـد ومن أشهرها الملتـان والمنصورة .

كانت اللغة العربية هى اللغة الرسمية فى هذه الآونة وكان بنو سامة آخر أسرة عربيـة حكمت الهند فى هذه الفترة . ثم قامت الدعوة الفاطمية وبلغت أوج نشاطها حتى قامت لهم الدولة عندما تولى الحكم فى مصر العزيز بالله الفاطمى ، فخطب الفاطميون فى الملتان للخليفة الفاطمى ، لا نريد الاطالة فى هذا الموضوع وللتفصيل يحسن الرجوع الى مقالنـا « الدولة الفاطميـة فى الهند » فى « المجلة » عدد أكتوبر سنة ١٩٦٣ .

٢ ــ لم يوضح الفـرق بين محمود الغزنوى ومحمد الغورى ، اذ الأول لم يستهدف الا شن الغارات على الكفار على حـد اعتقاده ، وسلب القوت ونهب الأموال من الهند وتصـديرها الى بلاده « غزنة » على حين استهدف محمد الغورى انشـاء الدولة الاسلامية فى الهند وقرر البقـاء فيهـا .

٣ ــ كان ينبغى للمؤلف وهو يتكلم عن انتشار الاسلام بعد غزوات محمود الغزنوى ومحمـد الغورى أن يعقـد بابا مستقلا لوصف انتشار الاسلام فى أنحاء الهنـد ، ففى الحقيقة أنه ترك فراغا كبيرا لابد من تسديده ، لأن الاسلام انتشر فى هـذه الآونة بجهود وكفاح آلاف من العلماء والمتصوفين الذين وفـدوا الى الهند من بلاد العرب والعجم ، مثل المصلح الكبير خاجا معين الدين الجشتى الذى نشر الاسـلام فى أجمير ونواحيها (فى شمال الهند) حيث لم يصل الجيش الاسلامى بعد .

وكذلك كان لتلاميذه ومن سبقه من المجاهدين دور كبير فى انتشار الاسـلام فى شمال الهند

وجنوبها ، ولهذا كان ينبغى على المؤلف وهو يؤرخ هذه الفترة الحاسمة من التاريخ أن يوفى هـذا الجانب وكان يساعده فى هذا الصدد الدعوة الى الاسلام للأستاذ « أرنولد » الذى تمت ترجمته الى العربية مبكراً ، وكتاب «بزم صوفية» للأستاذ صباح الدين عبد الرحمن بالأوردية ، وكتب أخرى كثيرة .

٤ ــ وفى صحيفة ١١٨ من كتابه حين تحدث عن الملك علاء الدين الخلجى ، مر مرورا سريعا دون وقفة طويلة فيه ، فلم يسترع انتباهه نتائج غزواته لجنوب الهند ، وهذه الغزوات تحتل مكانا خطيرا فى تاريخ الاسلام بالهند ، اذ أن الأمواج الهائلة للجيوش الاسلامية التى ظلت تتدفق على شمال الهند منذ عصر محمد بن القاسم دخلت جنوب الهند لأول مرة ، وبهـذا التقت جنوب الهند بشمالها التقاء ثقافيا وسياسيا ، وقبل وصفه لهذه المرحلة كان ينبغى للمؤلف أن يشرح انتشار الاسلام فى هـذه المنطقة ، وهناك آراء متناقضة بهـذا الصدد ، طائفة من المؤرخين يقولون : ان الاسلام انتشر فى جنوب الهند بجهود الجاليات العربية والتجار العرب فى حين يدعى الدكتور محمد حسين نينار فى كتابه Arab Geographers Knowledges South India أن هؤلاء العرب ليس لهم أى دور فى انتشار الاسلام فى هـذه المناطق .

وبما أن الاسلام دخل هذه المنطقة منذ فجر الاسلام بسبب ارتباطها ببلاد العرب منذ أقدم العصور ــ كما وصف المؤلف نفسه بعض وجوهه ــ فقد أثر تأثيرا كبيرا فى أفكار وآراء زعماء الهندوكيين الذين نبغوا فى هذه الفترة ، لقد أصبحت جنوب الهند فى هذا العصر مهد الثقافة الهندوكية وظهر فيها أعظم مفكر هندوكى وهو « سانكار اتشارى » الذى تجاوب مع الفكر الاسلامى الى حد بعيد كما ذكره المؤرخ الهندوكى الكبير المعاصر الدكتور « تاراتشند » فى كتابه Influence of Islam on Indian Culture ولكن المؤلف لم يطرق هذه الجوانب .

٥ ــ ففى صحيفة ١٢٦ حينما تحدث عن الأسرة الطغلقية لم يسترع انتباهه ما حدث لأول مرة فى تاريخ العرب والمسلمين الهنود من توطيد أواصر العلاقات السياسية والثقافية بينهما . وذلك ان السلطان محمد بن تغلق اتصل بالخليفة العباسى فى مصر رغم أن الخلافة لم يبق لها من أثر الا الاسم دون النفوذ وبايعه وطلب منه الاذن ليحكم الهند نيابة عنه وذلك حبا للعرب والعباسيين والخلافة الاسلامية .

وكذلك وفد على بلاطه علماء كثيرون من البلاد العربية واشهرهم ابن بطوطة الرحالة الشهير ، والشيخ عبد العزيز الاورديلى أحد تلاميذ شيخ الاسلام ابن تيمية الذى أثر فى الملك تأثيرا كبيرا مما حدا به أن يحب العرب والاسلام من أعماق قلبه (رحلة ابن بطوطة ٣ ــ ١٥٨) .

٦ ــ قد تكلم فى صحيفتى ٣٢ ــ ٣١٦ فى اللغة الأوردية وقال انها أحدث اللغات الهندية التى لا يرجع تاريخها الا الى اكثر من اربعة قرون ، وهذه فكرة خاطئة تحتاج الى دراسة وتحقيق وتعمق ، وفى الحقيقة أن الأوردية كانت تسمى قبل الاسلام « براكرت ، وبرج بهاشا » وقد استمدت الكلمات والتعبيرات والحروف فى العصر الاسلامى ، فأصبحت كأسلوب مباين للهندية التى لا تختلف عنها الا فى بعض الكلمات فقط ، وقد اشبع هـذه الناحية كل من الاستاذين الكبيرين السيد سليمان الندوى فى كتابه « نقوش سليمانى » وعبد القادر سرور فى كتابه « اردوكى ادبى تاريخ » أى التاريخ الأدبى الأردى





٧ ــ وبعد سقوط الامبراطورية المغولية قامت فى الهند الاسلامية دويلات شتى أشهرها :

١ ــ حكومة ميسور .

٢ ــ حكومة آركات أوكرناتك « فى ولاية مدراس » .

٣ ــ حكومة حيدر آباد .

٤ ــ حكومة كلكتا .

٥ ــ حكومة أوده .

٦ ــ حكومة دهلى .

ولكن المؤلف لم يتحدث عن جميع هذه الحكومات وان تحدث عن « حكومة أوده » بالصدفة فقط . وبهذا أصبحت هذه الفترة من الزمان غير مقنعة من الناحية التاريخية .

٨ ــ قد عنى المؤلف عناية خاصة بالتاريخ السياسى للمسلمين فى حين أن النواحى الثقافية والحضارية والأدبية هى الأخرى كانت فى حاجة ملحة الى عرضها واشباعها ، لعل المؤلف سوف يتناول هذا الجانب فى الطبعة الثانية ان شاء الله حتى يتلاءم أسم الكتاب مع ما يفهم منه والا يكفيه أن يسمى « التاريخ الاسلامى السياسى فى الهند » .

الملاحظة الثانية : ــ

وفيما يتعلق بالمصادر التى رجع اليها المؤلف ، فله العذر ، اذا لم يكن يرجع الى أمهات المصادر فى اللغات الفارسية والأردية والانجليزية كما قلنا .

فلا شك أن معلوماته كلها فيما يتعلق بالهند وتاريخها وسرد الأحداث ، ووصف المعارك ، وكذلك الوقائع صحيحة لا غبار عليها ، ولكن بعض المصادر التى رجع اليها أو ذكرها المؤلف ضعيفة لدرجة أنها لا تتلاءم مع ضخامة هذا الكتاب وأهميته ، فمثلا : رجع المؤلف الى كتيب « حقائق عن الهند » فى صحيفة رقم ٢ ، وهو من المنشورات التى تعتبر من قبيل الدعاية والتى تصدر عن السفارة الهندية بالقاهرة ، وحينما تكلم فى الحضارة الهندية القديمة ــ فى مقدمة كتابه ــ وتاريخ الهند عامة كان ينبغى له أن يرجع الى الكتب الهندوكية القديمة الهامة وكذا الكتب الانجليزية The History of Indian People لمجموعة من المؤرخين الهندوكيين وكتاب The Indian History للمؤرخ Elfiston وكتاب Survey of India للمؤرخ Panikar وكتاب : تاريخ الهند لهنرى ايلت ، وكتاب تاريخ «سنده» (أى تاريخ السند باللغة الأردية) للأستاذ أبو ظفر الندوى وكتب أخرى كثيرة ومما يستدعى الغرابة أن كتاب « تحقيق ما للهند » للبيرونى لم يسترع انتباه المؤلف حينما تحدث عن الفرق الهندية وطوائفها مع أن هذا الكتاب يعتبر من المراجع الأساسية حتى للهندوكيين والافرنج .

وفيما يتعلق بعصر المماليك لم يتمكن المؤلف من الوصول الى أمهات الكتب والمصادر والمراجع التى كتبت قديما بالفارسية ، فكان ينبغى له على الأقل الرجوع الى كتاب « بزم مملوكية » للأستاذ السيد صباح الدين عبد الرحمن باللغة الأردية .

هذا ، واما العصر المغولى فلم يستفد فيه المؤلف من كتابى « علماء هنـــد كاشاندا وماضى » أى الماضى الذهبى لعلماء الهند للأستاذ محمد ميـان و « نقش حيات » أى آثار حياتى ، للشيخ حسين احمد المدنى استفادة كاملة مع أنه أشار اليهما فى موضع غير لائق ، لأن هـــذين الكتابين يعتبران مادة خصبة غزيرة لمعرفة الحيـــاة الاقتصادية والسياسية والعمرانية والمدنية لعصر المغول حتى احتلال الانجليز للهند .

وحينما أرخ المؤلف لمنطقـة جنوب الهند كان واجبا عليه اذن ولا يغنيـه أى شيء عن الرجوع الى هذين الكتابين فى اللغة الأوردية وهما :

« سلطنت خـــدادار ، وتاريخ جنوب الهند للأستاذ محمود بنكلورى ، ولكن المؤلف لم يفعل ذلك .

وكذلك رجع المؤلف بين حين وآخر الى مذكرات المدارس الثانوية (راجع ص ٩٠ ، ٩٣) مما لا يليق لكتابه القيم الذى يتنـاوله العرب من الأساتذة والمثقفين .

وكذلك وجـــدت اخطـاء فى أســـماء بعض الشخصيات مثل : مولانا محفوظ الرحمن (فى صحيفة ى فى المقدمة) مع ان اسمه مولانا حفظ الرحمن رئيس مؤسسة جمعية علماء الهند » .

ومن المبالغة فى نفس هـذه الصحيفة قوله فى مولانا محمد ميان أنه مؤرخ كبير مع أنه مجرد زعيم سياسى ومؤلف كتـــاب « مسلمانان هند كاشاندا وماضى » فلا نعتبره من المؤرخين مطلقا .

ومما لا يتلاءم مع الحقائق التاريخية أن يذكر المؤلف فى موضوع تاريخى هام قول زعيم سياسى معاصر وهو مولانا حفظ الرحمن فى لقـاء ودى بينهما فيما يتعلق بأبواب معبد سومنات ونقلها الى الهند (ص ٩٣) دون الرجوع الى مصـــدر موثوق به .

وهذه هى بعض النواحى الهامة أردت أن ألفت نظر المؤلف اليها لكى يتداركها فى الطبعة الثانيـة كما وعدنا فى المقـــدمة ، فلم أبد هذه الملاحظات الا كمواطن من تلك البقعة التى أرخ لها المؤلف ، ودارس تاريخهـا المجيد ، متمنيا أن يكون هـــذا الكتاب الوحيد فى تاريخ الاسلام فى الهند ، كما نرجو أن يكون مرجعاهاما فى اللغة العربية ، حتى تكلل جهود المؤلف بالنجاح . وتفتح أمامه بعض الآفاق الجديدة التى لم تسترع انتباهه من أول وهـــلة .

محمد اسماعيل الندوى

سطور من كتاب ....

« والقيمة الكبرى لسقراط الأفلاطونى تتمثل فى دفاعه الرائع عن العقل باعتباره المثل الأعلى ، وفى تصوره الرفيع الواضح لما يتطلبه العقل ، وان سقراط ليؤثر فينا ، أكثر من أى شخص آخر ممن روت الكتب أنباءهم ، بالأهمية الكبرى لأن نفكر أسلم تفكير ممكن بحيث نجعل أفعالنا مطابقة لأفكارنا .... والواقع أن محاورة الدفاع قد جعلت من سقراط الشهيد الأول للعقل ، كما قد جعلت الأناجيل من المسيح الشهيد الأول للايمان » .

.... الموسوعة الفلسفية المختصرة

سطور من كتاب ....

« ان تعليم اللغات « بالتليفزيون » يبلغ جمهورا أوسع نسبيا ، وانه يلاقى ترحابا وتحمسا وان وسائله مازالت بعد فى طور التشكيل ، وطرقه تحتاج الى بلورة أكثر والى تثبيت . ولكن مهما كانت نقط ضعفه الحالية فان هذا التعليم موضع التقدير كاضافة الى الفرص القليلة المتاحة لتعليم اللغات الأجنبية ، التى أصبحت حاليا فى متناول الكبار والصغار » .

.... التعليم عن طريق التليفزيون

كارل ماركس

تأليف :
إيسيا برلين

ترجمة :
عبد الكريم أحمد

مراجعة :
محمد سامى عاشور



الناشر : الدار المصرية للتأليف والترجمة بالاشتراك مع دار القلم
٣١٨ ص - ٢٤×١٧سم - الثمن ١٥,٥ قرشا

« ليس هناك من بين مفكرى القرن التاسع عشر من ترك أثرا مباشرا قويا متعمدا فى الجنس البشرى مثل كارل ماركس » . بهذه العبارة يستهل اسيا برلين كتابه الذى نقله الى العربية الأستاذ عبد الكريم أحمد ، فى أسلوب يتسم بالدقة والرصانة ، وهو حلقة جديدة فى سلسلة « من الفكر السياسى والاشتراكى » التى تشرف على اصدارها المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر .

والكتاب على صغر حجمه نسبيا ، اذ يقع فى ٢١٨ صفحة من القطع الكبير ، يعرض لنا بصورة موضوعية ، المعالم الرئيسية فى حياة كارل ماركس ، ونشاطه النظرى والعلمى ، والعناصر الجوهرية فى « نظامه » الفلسفى من جوانبه الحاسمة ، كما يلقى قدرا من الضوء على أخلاقه وصفاته .

ولد ماركس بمدينة تريف بالقطاع الألمانى من حوض الرين فى ٥ مايو من عام ١٨١٨ ، وكان أبوه يهوديا تحول الى المسيحية ، والتحق بجامعتى بون وبرلين ، ثم عمل فى صحيفة راينيش زيتونج حيث بدت قدرة فى البحث والتحليل والاثارة ، ولكن تحت تأثير القوى الرجعية اضطر الى الانتقال الى باريس حيث تولى تحرير مجلة راديكالية اخرى ، ولكن اهتماماته تحولت الآن الى السياسة والاقتصاد . ومرة أخرى توجه الى بروكسل . وأخيرا انتهى به المطاف الى لندن ، حيث عاش فيها ، أو بعبارة أدق عاش فى مكتبة المتحف البريطانى التى وصفها بأنها « الموقع الاستراتيجى المثالى لدارسى المجتمع البورجوازى » ، و « مخزن

الذخيرة الذى يبدو أن أصحابه لا يدركون أهميته » .

وكان ماركس حساسا معتزا بنفسه ، يطالب دنياه بمطالب عظيمة ؛ ومن ثم فان صنوف الأذلال الحقيرة ، والاهانات التى عرضته لها ظروفه وخيبة أمله فى الحصول على المركز المسيطر الذى كان يعتقد أنه كفء له ، وكبت حيويته الطبيعية الهائلة ، كل ذلك « جعله ينطوى على نفسه فى نوبات من الحقد والغضب الجامح » ، وجدلها متنفسا فى كتاباته « وحملات الانتقام الوحشية الطويلة التى كان يوجهها الى بعض الناس » كما فعل مع برودون وباكونين مجن نذكرهما على سبيل المثال . وكان يشعر بكراهية صادقة للظلم ، ولكن حياة الشقاء والحرمان الماديين ، زادت من حقده على الفقر وما يجره على صاحبه من عبودية ومذلة

وتعرض ماركس فى شبابه لمؤثرات فكرية ، فقد جعله أبوه يطالع مؤلفات فولتير ولوك وديدرو ودرس فلسفة هيجل التى تذهب الى ان التغيير هو القاعدة التى تسير عليها الحياة ، فكل فكرة تولد حتما نقيضها ثم تتحداه فى تآلف يولد بدوره نقيضه ، ومن هنا فالتاريخ ليس الا تعبيرا عن هذه الحركة الدائبة من الأفكار المتعارضة . ولكن ما لبث أن طلع فيورباخ ليعلن أن القوة المحركة فى التاريخ ليست قوة روحية ، ولكنها مجموعة الظروف المادية التى تدفع الناس فى فترة معينة الى التفكير والتصرف على نحو معين . وهنا رأى ماركس أن فلسفة هيجل قد اقامت صرحا جميل المنظر من الفاظ وضع بعضها فوق بعض ، وأن من واجبه أن يقيم صرحا آخر واقعيا ، أو كما قال ، لقد رأى المنطق الجدلى عند هيجل يقف على رأسه فكان لابد أن يجعله يقف على قدميه . واخذ ماركس عن سان سيمون رأيه فى أن نمو العلاقات الاقتصادية هو العامل الحاسم فى التاريخ ، وأن التطور التاريخى صراع دائم بين طبقات اقتصادية . وما من شك أيضا أنه تأثر بأفكار الاقتصادى الانجليزى ريكاردو فى تحليل قيمة العمل واتخذ منه مادة يبنى عليها نظريته « فائض القيمة » المعروفة التى هى — عنده — جوهر الاستغلال الرأسمالى .

ويرتبط اسم ماركس بما يقال لها « المادية التاريخية » . انه لم ينشر على الاطلاق عرضا رسميا لها ، ولم تظهر فى كتاباته الا فى صورة شذرات ، وجاء أوسع ما كتبه عنها فى « الأيديولوجية الألمانية » وهو مؤلف فى ٦٠٠ صفحة اشترك فى وضعه مع فردريك انجلز . ويلخص ماركس رأيه فى نبذة معروفة وردت فى « نقد الاقتصاد السياسى » بقوله « ان الناس فى الانتاج الاجتماعى الذى يقومون به يدخلون فى علاقات محددة مستقلة عن ارادتهم ولا غنى عنها ؛ وعلاقات الانتاج هذه تقابل مرحلة محدودة من نمو قدراتهم المادية فى الانتاج ، ويؤلف جماع علاقات الانتاج البنيان الاقتصادى للمجتمع — وهو الأساس الحقيقى الذى يقوم عليه البناء الفوقى Superstructure ، القانونى والسياسى ، والذى تقابله صور محددة من الوعى الاجتماعى

.. وفى مرحلة معينة من نمو قوى الانتاج المادية تدخل هذه القوى فى صراع مع علاقات الانتاج القائمة أو .. مع علاقات الملكية .. وتتحول هذه العلاقات من صور لنمو قوى الانتاج الى أغلال تقيدها ، وعندئذ تأتى فترة الثورة الاجتماعية » .

وكان مركز « عصبة الشيوعيين » بلندن قد عهد الى ماركس بكتابة وثيقة تتضمن تحديدا لمعتقدات العصبة وأهدافها ، فكانت النتيجة فى عام ١٨٤٨ « البيان الشيوعى » وان اشترك فيه انجلز وان كان من المستحيل أن نعرف نصيب الأخير فيه . ويعلق المؤلف على تلك الوثيقة بقوله « جاء هذا البيان عملا يكاد يصل الى حد العبقرية . فما من حركة أو قضية حديثة أخرى يمكن أن تزعم أنها انتجت شيئا يقارن به سواء فى أسلوبه أو قوته » ، و « تأثيره على الأجيال المتعاقبة لا يوازيه تأثير خارج تاريخ الأديان ، ولو ان مؤلفه لم يكتب شيئا آخر لكفاه » . ان نظرة ماركس الى التاريخ ، كما حللتها المادية التاريخية ، ثورية وبعيدة الغور . ولكن الديالكتيك يؤدى أيضا الى المستقبل ، وذلك المستقبل على ما اظهر « البيان » يشير الى ثورة شيوعية لا مفر منها . « ان تاريخ كل المجتمعات السابقة (كما

يقول البيان) هو تاريخ الصراع بين الطبقات » ، واليوم نجد « أن نمو الصناعة الحديثة .. يزيد من تحت قدميها نفس الأساس الذى تنتج عليه البورجوازية وتقسم المنتجات » ، وما تنتجـه البورجوازية هو الأدوات التى ستقضى عليها ، أى البروليتاريا وهى الطبقة التى سـوف تتحرر وبعملها هذا تحرر الجنس البشرى كله ، ومن ثم يبدأ التـاريخ الحقيقى للانسانية ، كانت هـذه الصرخات نبوءة ونذيرا .

وأخيرا ، وبعـد سنوات طوال مضنية من الدراسة العميقـة نشر المجلد الأول من « رأس المال » فى سنة ١٨٦٧ ، فكان ظهوره « حدثا هاما فى تاريخ الاشتراكية الدوليـة وفى حياة ماركس نفسه . وقد كتب على صورة بحث شـامل فى قوانين التنظيم الاقتصـادى للمجتمع الحـديث وطريقة تكوينه ، يهدف الى وصف عمليات الانتاج والتبادل والتوزيع كما تحدث بالفعل ، وتفسير حالتها الراهنة بوصفها مرحلة بذاتها من مراحل النمو أوجدتها حركة الصراع الطبقى ... ويتناول المجلد الأول عمليات الانتاج ؛ أى العلاقة بين الآلة والعمل من ناحية ، والعلاقة بين المنتجين الفعليين (العمال وأولئك الذين يستخدمونهم ويوجهونهم) من ناحية أخـرى . أما المجلدات الباقية ، التى نشرت بعد وفاته ، فقدتناولت الأساليب المستعملة فى تسويق المنتجات المنتهية . والفكرة العامة التى تتخلل المؤلف كله تشبه التى وردت فى البيان وفى كتابات ماركس الاقتصادية الأخرى ، فهى تتبع ظهور البروليتاريا الحديثة عن طريق ربطها بالنمو العام للوسائل الفنية فى الانتاج .

ومات ماركس بقرحـة فى الرئة فى ١٤ مارس ١٨٨٣ ، ولـكنه « بتغييره النظرة لسائدة حتى وقته عن علاقة الفرد ببيئته وزملائه ، لقد ادخل تغييرا ملموسا على هذه العلاقة نفسها ؛ ومن ثم ظل أكبر قوة بين القوى الفكرية التى تغير اليوم بصورة مستمرة الأساليب التى يفـكر بها الناس ويعملون » .

دكتور راشد البراوى

سطور من كتاب ...

« ها أنذا الذى تريدون حضـوره . أريد أولا أن أقص عليكم احساسى ساعة انفصال روحى . لقد احسست حينذاك اهتزازا عنيفا ، ثم تذكرت بغتة ولادتى وسنى شبابى فسنى نضوجى .. وعادت جلية الى ذهنى ذكريات حياتى . وأحسست رغبة فى أن أجد نفسى فى المناطق التى تكشف لنا عنها عقائدنا العزيزة علينا . لقد صرت طليقا ورقد جسدى خاملا » .

... الانسان روح لا جسد

أندريا و الأخوان

تأليف : ترنتيوس أفير

ترجمة : { د . محمد سليم سالم
واحمد رفعت

مراجعة : د . محمد صقر خفاجة

مؤلف هاتين المسرحيتين هــو « پوبليوس ترنتيوس أفر » الذى ولد حوالى سنة ١٨٥ ق.م بمدينة قرطاجنة بشمال أفريقيا ثم انتقل الى روما فى طفولته كعبد اشتراه « ترنتيوس لوكانوس » عضو مجلس الشيوخ الرومانى الذى منحه قسطا وافرا من التعليم ثم أعتقــه وخلع عليه اسـمه (ترنتيوس) .

أما أصله الأفريقى فواضح لنا من لقبه « أفر » Afer (افــريقى) الذى عــرف به اذ يدعى Publius Terentius Afer وقد كانت موهبته وذكاؤه سببا فى تحريره كما كانا السبب فى انضمامه الى الجمعية الأدبية التى تكونت فى عصره والتى كان يرعاها سكپيو الأفريقى الأصغر ، وبذلك أصبح صديقا لأشراف روما الذين كان غرضهم ادخال الثقــافة والحضارة اليونانية الى روما .

ولقد أوقف ترنتيوس حياته على كتابه الملهاة المأخوذة عن المسرح اليونانى . وبعــد أن كتب ست مسرحيات باللغة اللاتينية بين سنتى ١٦٦ و ١٦٠ ق . م ذهب الى بلاد اليونان ســنة ١٦٠ ق . م ونحن لا نعــرف السبب الحقيقى الــذى حفزه على القيام بهذه الرحلة ولكن من المحتمل انه ذهب لدراسة الحياة اليونانية ليساعده ذلك فى تصوير شخصيات مسرحياته . وقــد توفى بعد سنة من هذه الرحلة ، وقد اختلف المؤرخون فى معرفة مكان وفاته وكيفية موته ، فبعضهم يقول انه غرق فى البحر عند عودته الى ايطاليا والبعض الآخر يقول انه توفى بالحمى فى قــرية من قــرى « اركاديا » .

أخــذ ترنتيوس ملهاته عن كتاب الكوميديا اليونان وأهمهم . « مناندروس » . وقد مرت الكوميديا اليونانية بثلاث مراحل ، المرحلة الأولى فى عصر پريكليس حيث بلغت حد الكمال فى ملهاة « اريستوفانيس » التى تنطوى تحت اسم مرحلة « الكوميديا القديمة » وقد كان أهم الكتاب الأول لهــذه المرحلة « يوپوليس » و « كراتينوس » و « فرينيكوس » ولم يتبق لنــا الا القليل من مسرحياتهم فيما عــدا أرستوفانيس فقد ترك احـدى عشرة مسرحية كانت معظم موضوعاتها سياسية ونقد لاذع للأشخاص . وبعد أن فقدت أثينا استقلالها السياسى أى بعــد انتهاء الحرب البلوپونيزية سنة ٤٠٤ ق . م اتجهت الكوميديا اتجاها آخر واخــذت موضوعاتها من الأساطير والنواحى الفلسفية والأدبية والاجتماعية ، كما قل دور « الـكورس » (الجوقة) عما كان عليه



الناشر : مشروع الألف كتاب
بالاشتراك مع
مركز كتب الشرق الأوسط
١٤٩ ص ١٤×٢٠ الثمن ١١ قرشا

وذلك فى « الكوميديا المتوسطة » (٤٠٤ — ٣٣٨ ق . م) وهى تنتهى فى عهد الاسكندر وأهم كتابها « أليكسيس » و « أنتيفانس » ، أما المرحلة الثالثة المسماة بمرحلة « الكوميديا الجديدة » فتبدأ من سنة ٣٣٨ ق . م الى سنة ٢٥٠ ق . م تقريبا وكان أهم كتابها « ماناندروس » .

اشتقت الكوميديا الجديدة مادتها من صميم الحياة العامة ، حياة الأفراد الخاصة فيتحدث فيها عن الحب والعواطف وتعطينا فكرة عن حياة الأشخاص العاديين ، كما كانت فكرتها وشخوصها من وضع الخيال .

ترك كتابها اذن الموضوعات السياسية المحدودة التى كانت من مميزات المرحلة القديمة ، وكذا ابتعدت عن الأساطير والموضوعات التى كانت تتميز بها المرحلة المتوسطة ، ولم تفرض ذوقا خاصا ، وكان طابعها « برجوازيا » ولذلك أصبح لها طابع عالمى يمكن لأمم كثيرة الأخذ عنه واقتباسه الى لغاتها المختلفة اذ يمكن نقلها الى أى مكان وفى أى زمان اكثر من التراجيديا (ان الكوميديا الجديدة مرآة الحياة وتعتبر بحق سلفا للدراما الأوربية وليست التراجيديا .

ان مسرحيات الكوميديا الجديدة كما نعرفها من الشذرات التى تبقت لنا ملهاة لماناندروس ومن ملهاة الكاتبين الرومانيين « بلاوتوس » و «ترنتيوس» تتشابه فى موضوعاتها وشخصياتها فتحتوى على شخصية تاجر الرقيق الجشع والأب الغاضب والعبد الماكر والطفيلى النهم والجندى المغرور وغير ذلك ، ويتحدث فى معظمها عن شاب يونانى متعلق بحب فتاة جميلة فى حوزة تاجر رقيق على وشك أن يبيعها لآخر حيث أن الشاب لا يملك ثمنها فيحيك عبده أو طفيلى صديق له الشراك لوالد الشاب كى يسلب منه النقود اللازمة لشراء الفتاة ، ثم يظهر اخيرا أن الفتاة حرة المولد أى أنها من أصل يونانى ومن منبت حسن ولكنها كانت قد اختطفت أو تركت فى العراء منذ الصغر للتخلص منها ، وهكذا يحدث زواج مناسب بين الشاب وهذه الفتاة وتنتهى المسرحية بنهاية سعيدة . ان ظروف العصر هى التى أملت على الكتاب امثال هذه الموضوعات . نلاحظ أنه لم يكن للفتاة اليونانية ان تظهر فى المجتمعات العامة أو تحب ، وكان أبوها يزوجها الى رجل لم يكن قد شاهدها من قبل ، ولهذا فانه اذا كان لأحد الشبان ان يقع فى حب فتاة فانه عادة ما يقع فى

حب فتاة أقل من طبقته الاجتماعية ولذلك فانه لا يستطيع أن يتزوجها . لهذا كانت هناك تضحية غالية من الفتاة تقدمها فى سبيل حبها عندما تخضع لرغبات هذا الشاب . ان نظام المجتمع دفع الشبان الى أن يسعوا خلف العاهرات مما يكلفهم من المال ما لا طاقة لهم به .

وكان من الممكن للشاب أن يشترى امه بنقود يبتزها من والده بتدبير متفق عليه مع عبد له . أو كان يحدث أن يقع الشاب فى حب فتاة رقيقة الحال تعوزها الحاجة وتنشأ علاقة غير شرعية وغير مستقرة ، وقد جعلت الكوميديا هذه العلاقة تنتهى أخيرا بالزواج وذلك باظهار أن الفتاة من منبت أحسن مما كان يظن بها ، وانها كانت قد عرضت للعراء أو اختطفت فى طفولتها .

وقصة « أندريا » تدور حول شيخ أثينى يدعى « خريميس » رحل بعيدا عن مدينة أثينا تاركا ابنته « پاسيبولا » فى رعاية أخيه « فانيا » ، وعندما أصبحت مدينة أثينا مهددة بالحرب رحل « فانيا » مع « پاسيبولا » فى اثر أخيه ولكن السفينة التى كانت تحملهما تتحطم عند جزيرة « أندروس » وبعد نجاتهما من الغرق استضافهما أحد سكان الجزيرة ، غير أن « فانيا » لم يلبث أن توفى فتبنى المضيف الفتاة «پاسيبولا» وبدل اسمها فدعاها « جليكيريوم » واعتنى بتربيتها مع ابنته « خريسيس » وبعد موته هاجرت ابنته مع « جليكيريوم » الى مدينة أثينا وهناك وقع الشاب الأثينى « پامفيلوس » ابن « سيمو » فى حب « جليكيريوم » ، وقد حملت منه فوعدها بالزواج .

وفى أثناء ذلك كان « خريميس » قد عاد الى أثينا واتفق مع «سيمو» أبى الشاب «پامفيلوس» على أن يزوج ابنة أخرى قد ولدت له تدعى « فيلومينا » من « پامفيلوس » . وقبل أن تتم الترتيبات الخاصة بهذا الزواج تموت « خريسيس » وتنكشف لسيمو صدفة فى أثناء الجنازة علاقة ابنه بجليكيريوم ويسمع أيضا « خريميس » الذى لا يزال يجهل مصير ابنته پاسيبولا ـ بهذه العلاقة فيرفض ان يزوج ابنته من « پامفيلوس » . عندئذ يدبر « سيمو » حيلة للتأكد من شعور ابنه ازاء « جليكيريوم » اذ يزعم بأن زواج « پامفيلوس » من « فيلومينا » سوف يتم فى الحال ، ثم يقابل ابنه فى المدينة ويخبره بالذهاب الى المنزل كى يستعد لهذا الزواج .

يلجأ « پامفيلوس » الذى يصبح فى حيرة من أمره الى عبده « داڤوس » الذى سمع برفض « خريميس » فيشك فى تدبير « سيمو » ، وهنا يظهر « خارينوس » صديق « پامفيلوس » الذى يحب « فيلومينا » ويرغب فى الزواج منها ولكن أباها لا يقبله زوجا لها ويبدو على « خارينوس » اليأس بعد أن أخبره عبده « بيريا » بأن « فيلومينا » سوف تتزوج من « پامفيلوس » ثم يتوسل الى پامفيلوس كى يؤجل الزفاف ولكن « پامفيلوس » يطلعه على سره ويعده بمساعدته حتى يحصل « خارينوس » على « فيلومينا » .

وينصح العبد « داڤوس » سيده « پامفيلوس » بأن يتظاهر بالموافقة على رغبة أبيه معتقدا ان « خريميس » سوف يصر على عدم قبول «پامفيلوس» زوجا لابنته وانه ليس هناك ترتيبات جادة للزواج وانما تلك خطة مدبرة اراد بها والد « پامفيلوس » أن يختبر شعور ابنه ويعمل فعلا « پامفيلوس » بنصيحة العبد ويقوم « سيمو » بمحاولة ثانية مع « خريميس » حتى يوافق على الزواج . وبعد تردد يقبل « خريميس » . وفى هذه الأثناء تلد « جليكيريوم » طفلا فينصح العبد « داڤوس » المربية بوضع الطفل أمام منزل « خريميس » فيرى « خريميس » الطفل ويعلم أنه ابن « پامفيلوس » فيرفض ثانية زواج ابنته منه . بعد ذلك يظهر « كريتو » وهو أحد مواطنى جزيرة أندروس وقريب « خريسيس » ، وكان قد اتى ليبحث عن ممتلكاتها بعد أن سمع بوفاتها . ويعرف منه « خريميس » قصة شقيقه « فانيا » وأن « جليكيريوم » لم تكن سوى ابنته المفقودة « پاسيبولا » وحينئذ يوافق خريميس على زواجها من « پامفيلوس » الذى يعد صديقه « خارينوس » بالتوسط له فى الزواج من « فيلومينا » .

اما قصة « الأخوان » فيتحدث فيها عن أخوين مختلفين فى الطباع « ميكيو » و « ديميا » . ديميا

رجل متزوج يعيش فى الريف ويركن الى التحفظ والاستقرار أما ميكيو فهو رجل عزب يميل الى صخب الحياة ويعيش فى مدينة أثينا .

ولديميا ولدان أحدهما « أيسخينوس » وقد تبناه عمه « ميكيو » الرجل المتسامح فتركه يتمتع برغباته دون الوقوف فى طريقه وكان أن اعتدى « أيسخينوس » على عفاف ابنة امرأة أرملة تدعى « سوستراتا » وقد وعد اثر ذلك بالزواج من تلك الفتاة واستمرت هذه الأمور فى طى الكتمان . أما الابن الآخر فهو « كتيسيفو » فكان يعيش فى الريف تحت رقابة والده الشديدة . ولكنه عند زيارته للمدينة أحب احدى الاماء التى كانت فى حوزة « سانيو » أحد تجار الرقيق .

واراد « أيسخينوس » أن يساعد أخاه فأخذ على عاتقه اختطاف الفتاة التى يحبها غصبا من تاجر الرقيق الجشع الذى طلب مبلغا كبيرا ثمنا لها واحضارها خفية الى منزله . وعندما يعلم الشيخ ديميا بما حدث يثور على أخيه « ميكيو » لتساهله وما كان لهذا التساهل من تاثير على سلوك « أيسخينوس » ـ ظنا منه أن « أيسخينوس » قد أحضر الفتاة لنفسه لا لأخيه ـ مادحا فى الوقت نفسه ابنه «كتسيفو» وما يتحلى به من أخلاق قويمة لأنه تربى تحت رعايته . ثم يحدث أن تسمع « سوستراتا » بقصة الفتاة التى اختطفها أيسخينوس فى الوقت الذى تلد فيها ابنتها « بامفيلا » فتعتقد أنه قد هجر ابنتها الى أخرى وتسرع لتخبر «هيجيو» أحد أقربائها بالأمر .

ثم يعلم « ديميا » بأن لابنه « كتيسيفو » يد فى حمل الفتاة مع أيسخينوس ولكن العبد « سيروس » يخترع قصة يتستر بها على « كتسيفو » ويعلم « ديميا » من « هيجيو » بسلوك أيسخينوس ازاء « بامفيلا » ويريد « ديميا » مقابلة أخيه « ميكيو » فيذهب باحثا عنه فى مكان كان قد أخبره به العبد « سيروس » فى حين أنه كان فى مكان آخر ، فيبحث عنه دون جدوى ، ثم يقابل « هيجيو » ميكيو ويقص عليه ما حدث من بامفيلوس فيطمئنه ميكيو الذى يعلم بشعور « أيسخينوس » نحو « بامفيلا » ويصاحبه الى منزل « سوستراتا » حيث يعد بزواج « أيسخينوس » من ابنتها . ويعود « ديميا » بعد بحثه الطويل عن أخيه ويندفع نحو منزل أخيه فيجد ابنه « كتسيفو » يحتسى الخمر فيعنف أخاه ميكيو على ذلك ولكن ميكيو يحاول أن يهدىء من ثورته وينجح فى ذلك .

ولكن « ديميا » يغير من أخلاقه فجاة ويعزم على أن يكون عطوفا كريما فى المستقبل فيعمل على أن تحضر «بامفيلا» الى منزل «ميكيو» ويحتفل بزواج أيسخينوس من بامفيلا ثم يحث ميكيو على أن يتزوج أيضا من سوستراتا ، المراة العجوز ، ويأمر باعتاق العبد « سيروس » وزوجته ، وتنتهى الرواية بنصيحة من ديميا يدعو فيها الى الاعتدال والكرم .

دفع ترنتيوس الأدب المسرحى خطوة كبيرة الى الأمام ، ولقد حاول « بلاوتوس » من قبله أن ينهض بلغة المسرح ، غير أن الرومان فى زمانه لم يكونوا قد وصلوا بعد الى درجة كبيرة من الثقافة تجعل الرقى بالأدب والفن المسرحى أمرا يسيرا . ومن ناحية اخرى انطلق بلاوتوس يوجه همه الى جمهوره من العامة ، يعمل على تسليتهم وارضائهم فيكتب لهم بلغتهم ، ولا يهتم بما يطلب الخاصة ولا يحاول أن ينقل النص اليونانى بما فيه من لغة رفيعة أو تحليل نفسى ليرضى طبقة المثقفين كما فعل ترنتيوس .

لقد أظهر ترنتيوس بمهارته ما كان عليه الأدب اليونانى من جمال واهتم بتحليل شخصياته ووضع قصصه فى لغة رفيعة منتقاة .

كان ترنتيوس كاتبا مجددا اظهر الملهاة فى ثوب جديد ، فرواياته تسودها البساطة والهدوء ونقاء الأسلوب ، ولم يكتف ترنتيوس بتقديم الأشخاص الذين نجدهم دائما فى الملهاة مثل العبد المسرع أو المتطفل النهم أو المخادع الصفيق أو تاجر الرقيق الجشع . هذه الشخصيات التقليدية كانت تقيد الكاتب المسرحى كما كانت تؤدى الى الصخب والمهزلة ، تلك الأمور التى لم يكن ترنتيوس يهدف اليها لأن الملهاة عنده كانت مرآة للحياة وكان الضحك فيها وسيلة لا غاية فهى تستهدف الاصلاح ، وهذه هى فلسفة الضحك فى

«الكوميديا» . فابتعدت رواياته ، الا فيما ندر ، عن مناظر الفحش والمجون . وقد اظهر بعض الشخصيات التقليدية بصورة أفضل من الصور التى اعتادها الكتاب .

تظهر لنا شخوص ترنتيوس طبيعية بحيث توافق ما نشاهده فى الحياة ولم يرغب ترنتيوس ان تكون شخصياته على مقدار كبير من الفضيلة بل اكتفى بتصويرها وهى ضابطة لنفسها ومعتدلة سواء فى أقوالها أو أفعالها ولو انه كان ينقصها التنوع . وتمتاز رواياته بالتحليل النفسى والعواطف الانسانية والبورجوازية وتثير شخصياته روحا كوميدية طبيعية اذ كانت تبعد عن الضحك المبالغ فيه .

ان عبيده يقومون بتدبيراتهم ومكائدهم وشبح الخوف يسيطر عليهم بينما كان عبيد پلاوتوس اكثر جرأة . ولذلك كان عبيد پلاوتوس أكثر درامية بينما كان عبيد ترنتيوس اكثر واقعية .

ولم يكن تاجر الرقيق وغدا عديم الشرف يسىء معاملة الرقيق — كما نشاهد فى روايات پلاوتوس — وانما يمكن اتهامه لأنه يحنث بوعوده ولكن مما لا شك فيه أنه يعيش من أجل المال وقد يكون هذا عذرا له فى ذلك .

يعتبر الرجل العجوز عند ترنتيوس حكيما وتتغلغل فى نفسه الفضائل الانسانية . انه كان يعمل على الاحتفاظ بالمستوى الأخلاقى لأسرته . وكان الشاب أيضا طيب القلب كما يظهر من رد « پامفيلوس » على الأمة « ميسيس » فى المنظر الخامس من الفصل الثانى لرواية « أندريا » حيث يقول :

اتظنيننى رعديدا ناكرا للجميل قاسيا متوحشا حتى أنه لا الألفة والمودة ولا الحب ولا الحياء يؤثر فى أو يجعلنى أحافظ على عهدى) . وكذلك اضطراب وحيرة پامفيلوس بين وعوده الى محبوبته وبين واجبه ازاء أبيه . ونشاهد أيضا ولاءه لأبيه وطيب عنصره فى المنظر الثالث من الفصل الخامس حيث يقول :

«انى اعترف بأنى احب تلك الفتاة . واذا كان فى هذا خطأ ، فانا مقر بهذا الخطأ أيضا ، وأضع نفسى ، يا أبى ، بين يديك . ضع أى ثقل على ، اصدر لى اى أمر . أتود ان أتزوج ، وأن أقطع صلتى بها ؟ سأحتمل ذلك بقدر ما أستطيع » .

عندما غضب الشاب « خارينوس » من « پامفيلوس » كان أقوى لوم يوجهه « خارينوس » هو « انك قد حنثت بوعودك » (الفصل الرابع — المنظر الأول) . وينـدر أن نجد شبيها لذلك الاتهام عند پلاوتوس . ويمكن أن ينطبق هـذا الكلام أيضا على الشاب « أيسخينوس » فى رواية الأخوان .

انه كان يفضل الرواية الهادئة التى تعتمد على البساطة والهدوء ونقاء الأسلوب . ان الشخوص التقليدية تبعث على الضجيج والمهزلة ويجب — فى نظر ترنتيوس — أن يتخلص الكاتب المسرحى من هذه القيود . ان مهارة ترنتيوس فى رسمه لشخصياته جعلت بعض النقاد القدماء ، مثل « ڤارو » ، يضعونه فى مقدمة كتاب الملهاة اللاتينية .

ونلحظ ان هاتين المسرحيتين تحتويان — كما تحتوى جميع مسرحيات ترنتيوس — على مقدمة استهلالية (پرولوجوس) ، ولكنها ليست مقدمات على شاكلة مقدمات الكتاب المسرحيين الآخرين . ان كتابة مقدمة استهلالية لاعطاء النظارة فكرة مختصرة عن موضوع الرواية وشخوصها كى تساعد النظارة ، خاصة غير المثقفين ، على تتبع أحداث الرواية عندما يتجمعون فى المسرح أثناء الاحتفال بأعيادهم كان تقليدا متبعا فى القرن الخامس قبل الميلاد على أيدى أساطين التراجيديا ويوريپيديس . وقد تبع هذا التقليد أيضا كتاب الكوميديا ، مثل الكاتب اليونانى ماناندروس الذى اقتبس عنه ترنتيوس معظم مسرحياته . ويقال ان المقدمة الاستهلالية فى الكوميديا مقتبسة عن التراجيديا . واذا كان على كاتب التراجيديا أن يكتب مثل هذه المقدمة فان هذا ألزم على كاتب الكوميديا التى كانت فكرتها وشخوصها من وضع بنات أفكار الكاتب نفسه . يكفى كاتب التراجيديا ان يذكر اسم « أويديپوس » أو «ميديا» فيعرف المستمع باقى القصة ، ومع ذلك فقد كتب مقدمة لمآساته .

فمن الأحرى أن يقدم كاتب الكوميديا لمسرحيته اذ أن موضوعها غير معروف للنظارة . ومن الأمور المتفق عليها فى النقد ان كتاب الكوميديا اليونانية الجديدة ومن بينهم « پلاوتوس » الرومانى كانوا يجهدون انفسهم اكثر من كتاب المسرح فى العصر الحديث بالتمهيد لجمهور مسرحياتهم واخبارهم عن كل تحول فىموضوعاتها ، وبذلك لم يكن الطريق ممهدا لهم ليكونوا أحرارا فى اســـتخدام عاملى التشوق والمفاجأة .

أما ترنتيوس فلم يعمل بهذا التقليد (كتابة مقدمة استهلالية) وان وجدنا هذا التقليد عند سلفه پلاوتوس . خالف ترنتيوس من سبقه من الكتاب فى انه استخدم المقدمة فى الرد على أعدائه من النقاد ومناقشة المسائل الادبية ولم يستخدمها كغيره من الكتاب فى اعطاء النظارة فكرة مختصرة عن مسرحياته .

ويعتبر عمل ترنتيوس هذا تقليدا جديدا فى تاريخ الدراما ، فان مقدماته تعتبر من أوليـــات الجدل الأدبى كما أنها الأولى من نوعها فى تاريخ النقـد . وكان ترنتيوس يعتقد أن كتابة مقدمة للمسرحية أمر يخالف طبيعة العمل الأدبى ، هـذا هو السبب الحقيقى الذى جعله يختط لنفسه طريقا مخالفا لما اتبعه غيره من الكتاب ولم تكن رغبته فى الدفاع عن نفسه هى السبب الوحيـد الذى حمله على تغيير طبيعة المقدمة . لقد رغب ترنتيوس فى أن يكشف النظارة بأنفسهم شيئا فشيئا عن موضوع الرواية وكان يعتقد ان عامل المفاجأة من العوامل الهامة فى المسرحية . لقد كان پلاوتوس يحـــاول ما اســتطاع أن يشرح ما يعتقد ان الجمهور فى حاجة الى فهمه .

أما ترنتيوس فكان حسن الظن بمقدرة النظارة على الفهم وكان يرغب فى أن يجعل المستمع يحاول كشف الحقيقة بنفسه مما يشاهده على المسرح بل كان يحاول أحيانا أن يخفى عنـــه الحقيقة ولو الى حين ، لذلك كان عامل المفاجأة والترقب من اسرار ترنتيوس .

ان طريقة ترنتيوس هذه قد جعلته يقلل من افق « الســـخرية الضـاحكة » Comic irony



التى مبعثها شـعور المتفرج بالسمو Sense of Supériority الذى قال عنه أفلاطون انه من نتاج الكوميديا . وهذا السمو ينتج من معرفة المتفرج مقدما بما يحـــدث على المسرح ومما يخفى على الممثلين أنفسهم . وهـــذه السخرية الضاحكة نجـــدها بكثرة فى مسرحيات « مناندروس » و « پلاوتوس » .

ومع ذلك فلم يبعد ترنتيوس رواياته كلية عن السخرية الضاحكة بالغائه المقدمة ، ففى رواية « أندريا » مثلا يذكر ترنتيوس على لسان العبد « داڤوس » (سطر ٢٢١) قائلا : « انهم يحيكون قصة أن الفتاة اثينية » ومنذ ذلك الوقت ينكشف تدريجيا الغموض الذى استحوذ على النظارة الذين كانوا مشوقين لمعرفة الموقف ويمكنهم الاستمتاع بالسخرية الضاحكة . وتحدث السخرية الضاحكة

فى رواية « الأخوان » عندما يلوم « ديميا » أخاه « ميكيو » لأنه أفسد أخلاق ابنه « أيسخينوس » الذى اختطف العاهرة من تاجر الرقيق ويقول غاضبا ان ايسخينوس مثل سيىء لأخيه «لكيتيفو» حتى ما يقرب من ربع المسرحية حتى يحل ترنتيوس الغموض ويظهر أن « لكيتيفو » هو منبع ما حدث وليس « أيسخينوس » . وبعد أن يعرف الجمهور الموقف يستمر غامضا بالنسبة لديميا لمناظر عدة وبذلك يتمتع الجمهور بالسخرية الضاحكة الناتجة عن موقف « ديميا » .

ان عامل المفاجأة يظهر فى رواية «الاخوان» عندما يهجر « ديميا » طريقته السابقة ويغير من خلقه فجأة ويتحول الى رجل كريم ونجاحه فى معاقبة اخيه الأعزب « ميكيو » على أن يتزوج من عجوز شمطاء .

ويظهر أيضا عامل المفاجأة فى رواية « أندريا » فى تدبير العبد « داڤوس » لمكيدته فى جعل « ميسيس » الغبية تمثل الدور الذى رغب فى ان تقوم به عندما يلومها على مسلكها ومسلك أم الطفل الذى وضعته هذه المربية أمام منزل « خريميس » وذلك بالرغم من ان داڤوس نفسه قد طلب منها ذلك . ان طريقة ترنتيوس تتمثل فى رواية الأخوان الذى يفتتحها بمونولوج على لسان ميكيو ، اذ أننا نلاحظ انه ذكر فيه بعضا مما يناسب المقدمة الاستهلالية التى حذفها ولكنه كان مقتصدا فى هذا المونولوج ثم يعطينا تفاصيل أكثر فى المنظر الخاص باختطاف فتاة تاجر الرقيق ، وبالرغم من ذلك فقد كان حريصا على السر ، ذلك ان الفتاة قد اختطفت من أجل الأخ المفروض أنه فاضل .

ثم ان هناك جانب آخر نلحظه بوضوح فى رواية الأخوان وهو الجانب الخاص بتربية الأبناء . لقد عمل ترنتيوس على أن تعبر بعض مسرحياته عن فكرة التربية وكان يريد أن يؤثر بذلك على جمهوره . شعر ترنتيوس بالحاجة الى تحسين طريقة التربية فى عصره . ويتجلى ذلك فى مسرحيتى « المعذب نفسه » و « الأخوان » فقد حاول فى هاتين المسرحيتين الوصول الى الطريقة المثلى فى التربية . انه كان ولا شك يعبر عن ذلك بلسان أعضاء جمعية سكيپيو الأدبية الذين كانوا مهتمين بالناحية الانسانية للثقافة الهيلينية .

كان التعليم على وجه العموم فى العصور الأولى عند الرومان من خصائص الأسرة ويهيمن عليه الوالدان وهذا النوع من التعليم هو الذى نقصد به فكرة ترنتيوس عن التربية ، أى طريقة الأسرة فى تربية ابنائها .

كانت التربية حتى منتصف القرن الثانى قبل الميلاد اى حتى عصر كاتو تتسم بالقسوة سواء من الناحية العقلية أو الجسمية وذلك مع التحلى بالفضائل الرومانية المعروفة كى تساعد الطفل على خدمة وطنه وأسرته . ولم تكن الثقافة العامل المهم فى ذلك الوقت بل كان غرض التعليم فى نظر الرومانى الأول هو الاعداد للحياة اليومية . ولكن عندما تغلغلت الثقافة اليونانية فى روما على يدى أعضاء جمعية سكيپيو الأدبية وفى وقت متأخر على يد شيشرون كان متوقعا أن يضيف الأدب والفلسفة اليونانية لمسة انسانية (١) نهائية الى ما جبل عليه الرومان من صفات كالولاء للآلهة والتقاليد والنظم وكالرزانة الصارمة .

والجلد والمثابرة والشدة والصرامة والاعتزاز بالكرامة وغيرها . وقد زاد من ذلك اهتمام الأثرياء بتعليم أولادهم للغة والثقافة اليونانية .

نلحظ من كلام « ميكيو » فى بداية مسرحية « الأخوان » أن أخاه « ديميا » رجل قاس ومجتهد فى عمله ويتقبل مسئوليته كرب للأسرة بينما « ميكيو » يحيا حياة مريحة تتسم بالتسامح ويعيش عيشة الرجل العزب غير المسئول .

ويختتم ميكيو « المونولوج » المنفرد بنظريته عن

---

(١) يشرح « نيبكين » معنى الانسانية كما فهمها الرومان فى مقاله :

Humanitas Romana, T.A.P.A. LXX (1939), 396-413

بانها شعور يتضمن واجبات انسانية عالية واحساس عريض من الحب والعطف وتهذيب عام للحياة يشمل الشكل الاجتماعى الخارجى وهى التمتع بدراسة الآداب والفنون كما هى ثمار التأمل والبحث العلمى وانها تحمل عقلى لجميع طرق السلوك .

الطريقة المثلى لتربية الابن : « وانى أعمل على أن يكون سلوكه نحوى على النهج الآتى : انى أعطى واتغاضى ، ولا اعتقد أن من الضرورى ان تنفذ مشيئتى فى كل أمر . وقد عودت ابنى هـذا على ألا يخفى عنى شيئا مما يفعل الشبان خلسة عن آبائهم مما يدعو اليه الشباب . لأن من تعود أن يكذب على أبيه أو يخـدعه ، فسيكون أكثر جراة مع الآخرين . وانى أعتقد أن من الأفضل أن ينقـاد الأبناء بالحيـاء والتسامح أكثر من الخوف . وهـذه الأمـور لا يوافق عليها أخى ولا ترضيه .. انه يخطىء خطأ كبيراً فى رأيى من يظن أن سلطانه سيكون أعظم أثراً وأكثر ثبوتا اذا دعمته القوة منه اذا اعتمد على المحبة . هذا هو رأيى وهو ما وطدت عليه نفسى » .

يتبين لنا من ذلك أن طريقة ميكيو فى التربية تعتمد على الثقـة والصداقة المتبادلة بين الأب وابنه . اذا أظهر الأب التسامح والعطف فان الابن سوف لا يخفى عنه سرا وسيكون صادقا وصريحا وسوف يتعلم فعل الصواب من نفسه وليس عن طريق الخوف من شخص آخـر وان استخدام الأب للقوة سوف يشجع ابنه على الخداع .

اما شـخصية « ديميا » فتختلف كلية عن شخصية أخيه « ميكيو » . انه الرجل الذى عاش طوال حيـاته فى الريف وربى ولده تربية تتسم بالقسوة والضغط وتظهر هذه الروح عندما يثور على تسامح أخيه «ميكيو» مع ابنه « أيسخينوس» مما جعل مسلك الأخير مشينا . ولكن يتضح لنا من المسرحية أن « كتسيفو » بن « ديميا » كان نفسه ايضا ذا سلوك مشين فقد وقع فى حب احـدى الفتيات كما نلحظ الخوف والجبن فى تصرفاته نتيجة لتربية والده القاسية . وعندما علم « ديميا » بمسـلك ابنه على حقيقته شعر بفشله وانقلب كريما ومتسامحا الى أبعد الحدود.

لقد فشـل كل من « ميكيو » و « ديميا » فى نظريته عن التربية . وأظهر ترنتيوس هذا الفشل وترك للنظارة استخلاص النظرية المثلى فى التربية بالرغم من وضوح فـكرة ترنتيوس عن الاعتدال اى انه يجب على الشخص ألا يبالغ فى تسامحه او قسوته . وهناك من يرى أن « ميكيو » مثال الرجـل اليونانى فى عصر « منـاندروس » وأن « ديميـــا » مثـال الرجل الرومانى فى عصر ترنتيوس .

ان ادماج النظريتين معا واسـتخلاص نظرية لا يسودها التسامح المطلق أو الشدة المطلقة هى ولا شك المغزى المقصود الذى كان يهدف اليـه ترنتيوس . ان جمال المسرحية تتمثل فى أن كلا من الأخـوين كان على خطـأ بالرغم من القصد الحسن لكل منهما .

تتمثل نتيجة الصراع بين الأخوين فى أن التربية الحقيقية تحتوى على رابطة من خيوط متسقة من القسوة والتسامح والانسانية .

وهذا الأمر يرفع من شأن المسرحية ويجعلها كوميدية اخلاقية وليست فقط للتسلية .

دكتور أحمد عبد الرحيم أبو زيد

كتاب فى الطريق

مع الدكتور طه حسين



وفى ثالث طريق ·· طريق الاهرامات وأبى الهول ، تطل القمم شامخة ·· لتوحى بالرهبة والجلال ·· يممت شطر بيت أنيق ، تحوطه الأشجار حانية ·· لتغلفه بغلالة من الشفافية · فتكسب النفس راحة واطمئنانا ·· ودلفت من الباب الصغير لأجدنى أمام مكتبة عالية تزاحمت المجلدات فوق رفوفها ، بينما يجلس أديبنا العملاق فى وداعـة وانتظار··حتى اذا ما سمعت نبرات صوته العميقة الرتيبة·· مرحبة وآذنة لى بالجلوس ·· زادت نفسى اطمئنانا ·· فجلست لأبدأ معه حديثا عن كتاب فى الطريق ·

جمال بدران

ان مجلة الكتاب العربى ليسعدها ان تزف الى قرائها قبولك الكتابة فى هذا الباب « باب كتاب فى الطريق » فهل فى الامكان ان يعرفوا انطباعات هذه الرحلة الأخيرة الى اوروبا عليكم ؟

● كانت رحلة استشفاء واستجمام .. لكنهاكانت أثنـاء فترة اضرابات واضطرابات فى فرنسا وايطاليا .. بسبب مطالب بعض الطوائف والهيئات لتحسين مستوياتهم المعيشية .. وفى الحقيقة ان الأجور هناك عالية .. لكن الفرد وخاصة فى فرنسا غير قانع بدخله ذاك المرتفع .. يريد ويريد .. فيواصل مطالبته برفع اجره . وكان أطرف اضراب وجدته هو اضراب أساتذة الجامعات هناك .. لكن الحكومة لا تستطيع أن تفعل شيئا .. هى فى سباق لا ينتهى بين رفع الأجور وبين ارتفـاع أسعار السلع .. كلما وافقت على رفع الأجور لزيادة دخل الفرد .. زادت الأسـعار فى اليوم التالى مباشرة وبشكل جنونى .. لذلك فان هناك من يسمى هذه الظاهرة باسم الدائرة الجهنمية .

كل هـــذا ذكرنى بموقف حكومة فرنسا بعد الحرب العالمية الثانية .. عندما أرادت أن تشجع الفرنسيين على الانســـال .. حتى تتغلب على النقص الخطير فى تعدادهم .. اذ جعلت جائزة

شهرية لكل أسرة تنسل طفلا جديدا .. لكن هذالم يلبث أن يدفع بها الى الشكوى - بعد فترة وجيزة - من أعباء هذا المأزق الذى أوقعت نفسهافيه .. لأنها دفعت بالأسر كافة الى العمل على تنمية هذه الجوائز .. ولم تستطع حكومة فرنساأن تتراجع عن ذلك حتى الآن .

لكن مثل هذه الأحوال كانت بعيدة - بالطبع - كل البعد عن قراءاتك .. فماذا كنت تقرأ هناك ؟

● اقتصرت فى قراءتى على القرآن والتوراة ..والحق ان التوراة بما هى عليه الآن .. لا يمكن أن تكون موحاة .. فتواريخهـا غير دقيقـة ،وأجزاؤها قد كتبت فى حقبات مختلفة أبعدتها عن الحقائق .. بل امتلأت بأساطير غير معقولةاطلاقا .. لكننى وجدت علماء المان يقفون حياتهم الآن على فحص التوراة لاستظهار حقيقتها .. فالعلاقة مثلا بين موسى وبين بنى اسرائيل صارت علاقة عقاب وشعور بالذنب .. اذ عندما ذهبموسى كى يخاطب ربه .. أجبر بنو اسرائيل أخاه هارون على السماح لهم بصنع تمثال من الذهبليعبدوه .. وتأثروا فى ذلك بمعبود العجل آبيس عند الفراعنة .. فصنعوا معبودهم عجلا علىشاكلته .. لكن موسى عاد اليهم .. فوجدهم على هذه الحال .. وأوقع بهم العقاب .. اذ حكم بأنتقتـل كل اسرة بكرها .. وقتلوا أبكارهم تكفيرا عن معصيتهم .. وبلغ عدد من قتلوهم من هؤلاءالأبكار مائة وخمسين الفا .

الا يمكن أن يكون هذا موضوعا لكتاب جديد لكم .. ؟

● لى أربع سنين وأنا أحاول أن أقرأ لأكملكتاب الفتنة الكبرى .. فى الجزء الثالث وهو الأخير الذى آمل ان استطيع اكماله .. وجدت ان الخوارج والشيعة قد حدث تطور بينهما حتى أواسط القرن الثالث الهجرى .. والواقع أنهتطور مدهش جدا .. فالحزبان كانا متعادبين .. اولا لأن الخوارج هم الذين قتلوا عليا ، وثانيا لأنرسالتهم كانت ثورة على الجماعة الحاكمة كلها .. الأمويين والعباسيين .. فكان الحزبان فى حربمستمرة .. انما وجدنا فى وقت من الأوقات ان واحدا من أبناء الحسين .. هو يحيى بن زيدبن على زين العابدين بن الحسين .. اراد ان يعقد اتفاقا بينه وبين الخوارج .. لكن اتبـاعه منعوه من هذا .. الا ان التطور الهائل حدث بعد ما جاء عصر الترجمة للثقافة .. هـذه الثقافة العـامة سـواء أكانت أجنبيـة أم عربيـة .. قد تغلغلت الى البيئات الشعبية .. وهنا كان منشأالتطور .. وجدنا أن الحزبين يلتقيـان اما على ارادة منهمـا واما على غير ارادة .. اذ تحـولتمطالبهما من المطالب السياسـيـة الى أخـرى أجتماعية .. وهى أن يتحقق العدل الاجتماعى ،وأن يوجد شىء من التقارب فى الثروة بين الأغنياء والفقراء .. أى انها مطالب سبق الحزبان بها تلك النداءات وهذه النظم التى نسمعها فى العـالم الآن .. اذ ظهرت هذه المطالب لأول مرة عندما اندلعت ثورة الزنج فى البصرة ثم ثورة القرامطة التى امتدت من البحرين الى الشـام ثم الى مصر .. وهذان الحزبان ظاهرهما شيعة .. أى أن الحزبين التقيا عند المطلب الاجتماعى بعد المطلبالسياسى .. وأنا للآن .. أسعى لاكمال هـذا الكتاب .. بعـد أن احيط بكل ما دار طوال مائةوخمسين عاما من الجهاد لدى طائفة الزنج .. وأرجو أن تساعدنى صحتى على هذا ..

ان شاء الله سوف تنعم بالصحة والعافية ..لنسعد بك وبهذا الكتاب قريبا .. انما يدفعنى الفضول الى معرفة دار النشر التى تفضلها لطبعه؟

● أنا دائمـا اعطى كتبى الى دار المعـارفلطبعها .. لأنهـا تتسم بالدقة والأمانة وحسن التقدير .

لكننا نلحظ ان دور النشر لا ترحب بكتاب لواحـــد من الواقفين على عتب الأدب .. فما رايك ؟ .

● أنا أرى أن الـكتاب الأول يشترط له كى يقبل أن لا يكون دون المستوى المعقول .

بمناسبة المعقول واللامعقول .. ما رايك فى هـذه الصيحات التى تجتاح حقول الثقافة فى اوروبا وفى بلاد الشرق الآن .. لا معقـــول ..سخط .. تحلل او تحرر من المقاييس الفنيـــة للادب .. ما رايك فى هذا كله ؟

● وابتسم أســـتاذنا الـكبير قائلا « ظهر اللا معقول فى أوروبا منـــذ فترة طويلة .. ومن العبث أن تطلب له تعريفا .. لأنه غير معقول ..محاولات طريفـــة .. ووجه الطرافة فيه أنك تضحك اذا ما قرأته أو شاهدته .. وقس على ذلك بقيـــة الاتجاهات الحديثـــة عند بيكيت وأونيسكو وبريخت ..

انني احار من امرى بين هذه التيارات .. هل هناك ما يتهدد الأدب هناك ؟ .

● وهز راسه بأسى مؤيدا .. ان أزمة أدبية تحتاج أوروبا عامة وفرنسا خاصة فى هذه الأيام .

أزمة تاليف ام ازمة قراءة ؟ .

● هى أزمة مزدوجة .. فالـكتاب هم الذين يفسدون ذوق القراء .. وهؤلاء يقراون ما يكتب لهم .

لو لجأنا الى الكتب ذات القيمـة كعـلاج ..فيعاد طبعها او ترجمتها الى العربية فى طبعات شـــعبية لتكون اسعارها فى متناول الجميع ..الا يصلح هذا من ذوق القراء ؟ .

● لو حددت سؤالك هنا بقراء العربية لاختلف الوضـع .. فيجب علينا أن نضيف هنا الى الكاتب والقارىء عوامل اخرى .. القارىء العربى يقبل على الشىء الموجود فى الســـوق .. لو غمرت الأسواق أمامه بالجميز مثلا لنسى التين وأكله ،ولو أزحت هذا من طريقه ووضعت التين له لأقبل عليه . لكن الكارثة الكبرى متمثلة فى تعلم اللغة العربية .. معلمو اللغة وطرق تعليمها يتحملون وزر التحلل منها .. انني أذكر مرة كان امتحان الانشـــاء العربى فى البكالوريا مثار شكوى من الطلاب كافة .. وكان موضوع الامتحان بهـــذا الشـــكل « هبك وردة قطفها قاطف .. فماذا تقول ؟ » .. ولست أدرى ماذا بعـــد أن تقطف الزهـــرة ، وما الذى تستطيعه أن تقول . ومن الغريب أن العامة يحبون سماع اللغـــة العربية الفصحى انهم يصغون الى القـــرآن فى فهـم واهتمام .. فالقرآن وحفظه من العوامل القوية التى تدعم جودة اللغة الفصحى .

لتسمح لى أن اضـيف الى ذلك اعادة طبـع كتبـك مرات ومرات .. فهى من العوامل التى تدعم اللغـــة العربية وتجتذب الناس الى دنيـا القراءة .. فما هى اقرب الـكتب الى نفســك لتنصح بمداومة قراءتها ؟ .

● وأوما أستاذنا لحظة وعلى وجهه ابتسامة مســتحبة .. ثم قال فى تواضع .. فى الحقيقة انني متى أمليت كتابا ونشر ، لا احب ان أسمع عنه او اراه .. طبيعتى هكذا .. ثم اخذ يتمتم قائـلا .. عجبى الى الذين يطيلون النظـر الى انفسهم فى المرآة .

لقاؤنا فى الشـــهر القـــادم

مـــع

الأستاذ محمد فريد أبو حديد

أســــس الفلســفة

تأليف
الدكتور توفيق الطويل
الناشر: مكتبة النهضة المصرية
٥٠١ ص ١٧×٢٤ سم
الثمن ٦٥ قرشا

صدرت فى أوائل هـذا العام الطبعة الجديدة الرابعة لكتاب « أسس الفلسفة » ، وقد أضاف اليها المؤلف زيادات وتعـديلات ، يتعلق معظمها ببيان فضل الشرق عامة ، والعرب خاصة ، على الفكر والعلم البشرى . وقد حرص المؤلف على توضيح هذا المعنى فى مقدمة هذه الطبعة ، التى ناقش فيها باسهاب موضوع دور العرب فى العلم والثقافة والفلسفة العالميـة . والواقع أن هذه سمة رئيسية من سمات الكتاب . وتصل رغبة المؤلف فى اثبات هذه الحقيقة الى حد اصـدار احكام مبالغ فيها أحيانا ، كقوله « وكان مفكرو العرب أول من زاول البحث الاستقرائى ، واتخذ الملاحظة والتجربة طريقا الى الكشف عن الحقائق الكونية ... » (ص ٢٢٢) . ذلك لأنه ، على الرغم من أن هذا التمجيد أمر مشكور ، فان المرء لا يملك الا أن يعترف بأن العلم التجريبى قد عرف فى العالم القديم ، ولا سيما فى مدرسة الاسكندرية التى بلغت فيها العلوم المبنية على الملاحظة شأنا كبيرا ؛ ولو كان اتجاه التطور قد استمر ، ولم تحدث نكسة العصور الوسطى الأوروبية ، لكان من الجائز أن تتم النهضة العلمية الحديثة قبل موعـدها بمئـات السـنين . واذا كان المؤلف قد استشهد بآراء « سارتون » لاثبات رأيه هذا ، فمما لا شك فيـه أن سارتون ذاته قد خصص لمدرسة الاسكندرية ، ولكشوفها العلمية التجريبية الهامة ، معظم الجزء الثانى من مؤلفه الضخم فى تاريخ العلم (وهو الجزء الذى لم يترجم بعد ، ولم يهتم به باحثونا اهتمامهم بالجزء الأول) .

والكتاب مدخل ضخم الى العلوم الفلسفية ، تربو صفحاته على الخمسمائة . وهو يتناول كل فروع الفلسفة ، القريبة منها والبعيدة ، بالعرض والتحليل . ومن الطبيعى أن يكون هذا العرض سريعا مختصرا فى كثير من الأحيان ، على الرغم من ضخامة الكتاب ، اذ أن كل فرع من الفروع التى يتناولها يحتاج بحثه التفصيلى الى مؤلفات كاملة . ومن هنـــا فان الكتاب مدرسى تماما فى طابعه : أعنى انه مدخل الى الفلسفة موجه الى الطلاب الراغبين فى الالمام بمعلومات عامة عن كل فرع من فروع الفلسفة ، أو الى القارىء العـــام الذى يود تثقيف نفسه فى هذا المجال دون خوض تفصيلات الخلافات المذهبية الدقيقة . وعلى هذا الأساس وحده ينبغى الحكم على الكتاب : فمن الواجب أن يقاس بمقياس الكتاب المدرسى الذى يقـــدم مدخلا عاما الى موضوعه ، لا بمقيـــاس الكتب المتخصصة التى تخوض فى التفاصـــيل وتغوص فى أعماق المشـــكلات . ومن المؤكد أن الكتاب — فى هذه الحدود — ينجح الى حد بعيد فى تحقيق الغرض المقصود منه .

وينقسم الكتاب الى أربعة أبواب ، يعالج كل منها موضوعا رئيسيا ، من موضوعات الفلسفة . فالباب الأول يتناول « الفلسفة مجالا ومنهجا » . والثـــانى « مبحث الوجود أو الأنطولوچيا » ، والثـــالث « الابستمولوچيا أو نظرية المعرفة » والرابع « مبحث الاكسيولوچيا أو القيم العليا » وهى الحق (المنطق) والخـــير (الأخـــلاق) والجمال (الفن) . ويختتم الكتاب بدليل لأهم المذاهب والمدارس الفلسفية ، ومعجم فى ترجمة المصطلحات والمذاهب والمسائل ، وهما تذييلان لهما فائدة غير قليلة بالنسبة الى الطالب الذى

يريد الالمام بمعانى المصطلحات الفلسفية واسماء المذاهب فى اللغة الانجليزية ـ وسأبدأ أولا بعرض سريع للموضوعات العامة التى عالجها المؤلف ، ثم أقدم ملاحظاتى النقدية على الكتاب فيما بعد .

* * *

فى الباب الأول من الكتاب يعالج المؤلف مسائل عامة : ففى فصل بعنوان « نشــأة الفلسفة » يعـرض المؤلف آراء الكتاب الذين يؤكدون أن الفلسفة والعلم قد ظهرا لأول مرة عند اليونانيين ثم يعرض آراء فريق آخر يذهب الى تأكيد أهمية الشرق القديم بوصـــفه الأصل الأول للتفكير الفلســـفى والعلمى . ومـن الطبيعى أن المؤلف يتحمس لهذا الرأى الأخير ويؤكد بكل قوة . وتلى ذلك مناقشـــة لتعريفات الفلسفة ، يهتم فيها المؤلف اهتماما خاصا بالاتجاهات المعاصرة ، ومنها اتجاه تقليـدى ، واتجاه وضعى ، واتجاه عملى (تمثله البرجماتية والماركسية) واتجاه وجودى . ويحدد المؤلف فى هذا الفصل موقفه من المذاهب المعاصرة ، وهو موقف وســـط بين كل طرفين متقابلين : كالنزعتين المادية والروحية ، والنظرية والعملية .

ويلى ذلك بحث فى موضوع الفلسفة ، يقسم فيه الفروع الفلسفية الى مبحث فى الوجـــود ومبحث فى المعرفــة ومبحث فى القيم . وينتهى هذا الفصل بتعقيب عن مناهج العلوم الانسانية ، يناقش فيـــه المؤلف منهجى علم النفس وعـلم الاجتماع مناقشـــة عامة ، يعرب فيها عن رأيه الذى يشكك فى « علمية » هذين العلمين ، وبالتالى فى قدرتهما على الاســـتقلال تماما عن مجـال الفلسفة .

ويستعرض المؤلف فى القسم الخاص « بغاية الفلسفة » ، الغاية التى كان التفلسف يرمى اليها فى مختلف العصور والمدارس الفلسفية ، وهذه الغاية هى التأمل النظرى حينا ، وتحقيق السعادة العملية حينا آخر .

وفى الفصل الخاص « بمناهج البحث العلمى » ، تناول المؤلف الأبواب الكلاسيكية المعروفة لمناهج البحث العلمى ، واستعرض باختصـــار مناهج بيكن وديكارت ومل ، والمنهج الرياضى ، والمنهج التجريبى ، وخصائص الروح العلميـــة وصفات العالم . وهذه كلها موضوعات مطروقة لا يمكن الاتيان فيها بجديد فى فصل واحد كهذا ، والجديد فى هذا الفصل هو اشارة المؤلف الى مناهج البحث العلمى عنـــد العرب ، ولا شك فى أن أى قارىء للكتاب يود لو كان المؤلف قد توسع فى هـــذا الموضوع اكثر مما فعل ، لأنه هو الموضوع الذى تفتقر اليه دراساتنا بحق . ويتضمن هذا الفصل قسما طريفـــا بعنوان « علاقة العلم » بالفلسفة تاريخيا » ، تتبع فيه المؤلف تاريخ استقلال العلم عن الفلسفة .

فاذا انتقلنا الى البابين الثـانى والثالث من الكتاب ، لوجدنا بينهما نوعا من التداخـل . فالفصل الأول من البـاب الثانى عنوانه : ما بعد الطبيعة أو الميتافيزيقا . وعنوان الباب كله هو « مبحث الوجود أو الانطولوجيا » .

اما الباب الثالث فعنوانه « الابستمولوجيا أو نظرية المعرفة » . على أن المؤلف ذاته يعترف بأن الميتافيزيقـــا ، ولا سيما فى العصور الحديثة ، تشـمل البحث فى المعرفـة الى جانب البحث فى الوجود . ومن هنا فقد كان من الواجب مراعاة ذلك فى التقسيم ، ومن المؤكد أننا لو قارنا بين مبحث الوجود وبين مبحث ما بعد الطبيعة ، من حيث مدى شمول كل منهما ، لوجـــدنا الثانى أشمل من الأول ، ومن هنا لم يكن من الصواب ـ فى رأيى ـ أن يعد مبحث الوجود جنسا وما بعد الطبيعة نوعا أو فرعا لهذا الجنس العام ، وانما الأصح أن يكون الجنس العـــام هو « ما بعـد الطبيعة » ، ويشتمل هذا الجنس على نوعين ، هما مبحث الوجود من جهة ، ونظرية المعرفة من جهة أخرى .

وعلى أية حال فان المؤلف يناقش فى أحـــد فصول الباب الثـــانى ، مفهوم الميتافيزيقا عند الماديين والروحيين ، ويستعرض فى فصل آخر آراء خصوم الميتافيزيقا ، ويتوسع ـ مع شىء من التكرار ـ فى نقد وجهة نظر الوضعيين المنطقيين المعاصرين .

وفى اعتقادى أن الفصل الأول من الباب الثالث ، الذى يتناول موضوع « امكان المعرفة » ، هو من أفضل فصول الكتاب : فالمؤلف يستعرض هنا مذهب الشك ، ويتوسع فى حديثه عن الشكاك القدامى ، ويفرق تفرقة واضحة بين الشك البيرونى (نسبة الى الفيلسوف بيرون) ، بما فيه من تخاذل ويأس ، وبين الشك السفسطائى ، « شك القوى الذى يضيق بالقيم المألوفة » ، وشك الأكاديمية الجديدة الذى يتوسط بين الطرفين . أما الفصل الثانى من هذا الباب ، وهو الذى يبحث فى « طبيعة المعرفة » ، فيعرض فيه المؤلف فروع المذهبين الواقعى والمثالى عرضا ليس فيه جديد .

وأخيرا ، ففى الباب الرابع ، الذى يتناول مبحث القيم أو الأكسيولوجيا ، يجد القارىء فى البداية فصلا جيدا عن القيم ومشاكلها . وقد أعجبتنى بوجه خاص مناقشة المؤلف لعلاقة القيم بعضها ببعض ، واستعراضه لمحاولات التوحيد بين الحق والخير ، وبين الحق والجمال ، وبين الجمال والخير . وكم كنت أود لو كان المؤلف قد انتهى الى رأى خاص فى علاقة هذه القيم بعضها ببعض ، بدلا من الاكتفاء بعرض محاولات الآخرين ونقدها .

على أن الفصل الخاص « بتاريخ علم المنطق » مقحم على هذا الباب اقحاما مصطنعا ، ولا مجال له ، فى رأيى ، فى باب يتناول مبحث القيم . صحيح أن المنطق علم يختص « بقيمة » الحق ، ولكن طالما أن المؤلف قد أفرد فصلا خاصا لطبيعة الحق ومعاييره ، فقد كان فى هذا الكفاية لبيان الصلة بين المنطق والحق ، ولم يكن هناك ما يدعو الى استعراض تاريخ المنطق فى باب يتحدث عن القيم . ذلك لأن موضوع القيم لا يستوعب مجال المنطق كله ، رغم وجود صلة قوية بينهما :

والدليل على ذلك أن المنطق لا يدرس بوصفه فرعا من مبحث القيم ، مع اعترافنا بأن الحقيقة — التى هى غاية المنطق — هى احدى القيم الرئيسية . ومن هنا فقد كان الأفضل فى رأيى حذف كل ما ورد عن « تاريخ المنطق » فى هذا الباب .

ويتناول الفصل الثالث من هذا الباب الأخير موضوع « الخير ، وعلم الأخلاق » . ويبدأ الفصل بعرض عام للمذاهب الأخلاقية فى طبيعة الخيرية ومقاييسها ، فيقسم هذه المذاهب الى حدسية وغائية ، ويعرف المذهب الغائى بانه القائل ان « الخير والشر والحق والباطل مجرد أفكار اصطلح عليها الناس فى ضوء التجارب التى يعيشونها والظروف التى تسود حياتهم ، ومن هنا اختلفت باختلاف الناس ، وخضعت لأهداف التطور الذى يتحكم فى سائر الظواهر الاجتماعية » (ص ٤٣٦) . وهذا التعريف فى رأيى غير دقيق : ذلك لأن الأخلاق العقلية عند كبار فلاسفة اليونان تندرج تحت المذهب الغائى ، ومع ذلك فمن قال ان سقراط أو أفلاطون أو أرسطو قد أعترفوا بالتطور أو قالوا ان القيم الأخلاقية مجرد أفكار اصطلح عليها الناس ؟ الحق أن الفلسفة الأخلاقية عند هؤلاء الأقطاب الثلاثة انما قامت أصلا لمحاربة مثل هذه الآراء النسبية عند السفسطائيين .

ومن جهة أخرى ، فقد ظل المؤلف طويلا يؤكد أن التقابل الأساسى فى الأخلاق هو التقابل بين المذاهب الحدسية والغائية ، ثم عاد فى مستهل القسم الثانى من الفصل نفسه ، فجعل هذا التقابل بين «اتجاه الحدسيين واتجاه التجريبيين» (ص ٤٤٣) . فهل نفهم من ذلك أن أصحاب مذهب الغائية هم التجريبيون فحسب ؟ اننا نعترف بأن التجريبيين غائيون ، ولكن العكس ليس صحيحا ، لأن كثيرا من القائلين بالغائية ليسوا من التجريبيين ، والدليل على ذلك قول كثير من الفلاسفة بأن غاية الانسان هى « الخير الأسمى » ، الذى يسرى على كل زمان ومكان ، أو بأنها هى « الكمال المطلق » — وهذه كلها غايات لا تدخل فى نطاق التجربة . واذن فالغائية والتجريبية لا يمكن أن يكونا مذهبين يحل كل منهما محل الآخر فى ميدان الأخلاق .

* * *

ولأنتقل الآن الى ابداء بعض الملاحظات النقدية . وأود منذ البداية أن أشير الى أن كثيرا من

الخلافات الفلسفية انما هى خلافات فى وجهات النظر فحسب ، وأن من غير المعقول ان يتفق ذهنان — فى المسائل الفلسفية — اتفاقا تاما على كل الأمور . واذن فاختلاف الآراء أمر ينتمى الى ماهيــة الدراسة الفلسفية ذاتها . ومن هذه الزاوية ينبغى أن ينظر الى العــدد الأكبر من الملاحظات التى سأوردها فى هذا الجزء من المقال .

ولأبدأ أولا ببعض الملاحظات التفصيلية :

— فى هامش ص ٧٩ كتب المؤلف تواريخ حياة الفيلسوف جورج سانتيانا على هــذا النحو : (١٨٦٣ — ؟) . والصحيح أن سانتيانا قد توفى سنة ١٩٥٢ .

— وفى هامش ص ١٢٧ وصف « نورمان كمپ سمث » بأنه « أستاذ الفلسفة الحالى بجامعة ادنبرة » . والصحيح أن سمث قــد اعتزل الاستاذية سنة ١٩٤٥ ، وتوفى سنة ١٩٥٨ .

— يترجم المؤلف عبارة Logical positivists بقوله « الوضعيون المناطقة » ، وهــذه ليست أفضل ترجمة ، لأن كلمة « مناطقة » تقابل كلمة logicians ، لا الصفــة logical . وليس من الضرورى أن يكون هــؤلاء الوضعيون « مناطقة » ، أعنى مشتغلين بالمنطق ومحترفين له ، وانما هم « منطقيون » فحسب .

— فى ص ٥٨ اتخــذ المؤلف من شــخصية « سنكلير » ممثلا للفلاســفة المعاصرين الذين استمروا فى الموقف التقليدى من مشكلة الوجود . وليس هــذا ، فى رايى ، بالاختيار الموفق ، لأن سنكلير هذا فيلسوف من الدرجة العاشرة وكان من الممكن اختيار أحد ممثلى مذهب « التوحية الجديدة » ، مثل « چاك ماريتان » مثلا .

— فى ص ٣٤٢ ذكر المؤلف اسم « اميرســون R. W. Emerson » ضمن المثــاليين الانجليز ، والصحيح أنه أمريكى .

— تحدث المؤلف فى ص ٣٤٦ و ٣٤٧ عن معيار « الضرورة والتعميم » فى المعرفة عند العقليين .

واذا كان اللفظ الأخير ترجمة لكلمة Unirversality فقــد كان من الواجب الاستعاضة عنه بلفظ « الشـــمول » ، لأن التعميم generalization معيــار تطبقه المذاهب التجريبية بنــاء على استقصاء مجموعات من الحالات الجزئية .

— فى ص ١٣٧ — ١٣٨ يقول المؤلف ان « علم النفس أخذ يستقل عن الفلسفة على يد مدرسة التحليل النفسى التى أنشأها سيجموند فرويد ومدرسة السلوكية التى تزعمها چون واطسون .. وبافلوف .. » . واعتقد أن استقلال علم النفس عن الفلسفة بدأ قبل ذلك ، على يد رواد النزعة التجريبية فى علم النفس ، مثل : ڤنت Windt وفشنر Fachner

— فى مناقشــة المؤلف لمعايير الحق (الفصل الثانى من الباب الرابع) لا يذكر شيئا عن أهم المعــايير جميعــا ، وهــو معيــار التطــابق Correspondance ، وهو المعيار الأول الذى ورد فى كتب ارسطو ، ثم انتقل منه الى كتابات كثير من الفلاسفة ، ولاسيما الاسلاميين . وتبعا لهــذا المعيار تكون الحقيقــة فى مطابقة الحكم للموضوع الخارجى . وتلك هى النظرية الأصيلة التى ظلت سائدة قرونا طويلة قبل ظهور النظريات التى تحدث عنها المؤلف ، كنظرية الوضوح عند ديكارت ، والنفع فى الحياة عند البرجماتيين .. الخ

كذلك فان تسمية المؤلف للنظرية المثالية باسم « نظرية الاتســـاق » تفتقر الى الدقة : ذلك لأن الاتســـاق Consistency غــير الترابط Coherence فالأول منطقى بحت ؛ وأية حقيقة يستدل عليها بالاستنباط ينطبق عليها معيــار الاتساق (أى عدم التناقض) . ولكن المعيار المثالى ينطوى على اكثر من انعــــدام التناقض : فهــو نوع من الترابط مع مجموع الأحكام ، بحيث يكون الكل وحــدة عضوية عينية . والاتساق معيـــار متضمن فى أية نظرية عن الحق ، لأنه أبســط شروط المعقولية ، ولا يستطيع أن ينكره أحد . وعلى ذلك فكلام المؤلف عن نوعين من الاتساق ، الاتساق المنطقى ، والاتســـاق المتصل بحقائق الواقع ، وربطه بين النوع الثانى وبين الاستدلال

الاستقرائى) ص ٤١٠ (لا صلة له على الاطلاق بمعيار الترابط عند المثاليين . ولقد أشار المؤلف الى كتاب Essays on Truth & Reality لبرادلى ضمن مراجعه فى هذا الجزء . ومن المؤكد أن الرجوع الى هذا الكتاب كان كفيلا بالقاء ضوء ساطع على نظرية الحقيقة عند المثاليين ، وبايضاح الموقف على نحو يحدد الفارق بين نظرية « الترابط » المثالية ونظرية « التطابق » الواقعية .

* * *

فاذا انتقلنا من هذه الملاحظات التفصيلية الى ملاحظات أخرى ذات طابع أعم ، لوجدنا أولا أن الجزء الأكبر من مراجع الكتاب ينتمى الى ذلك النوع الذى يمكن تسميته بالمراجع الثانوية ، أعنى أنها ليست مراجع أصلية للفلاسفة أنفسهم ، وانما مراجع لكتاب قاموا — قبل المؤلف — بعملية تلخيص لأفكار أو مذاهب أو اتجاهات فلسفية معينة ، وقام هو بتلخيص هذا التلخيص . وربما كانت طبيعـــة الكتاب ، بوصفه مدخلا عاما الى جميع العلوم الفلســـفية ، لا تحتم الرجوع الى الأصول فى كل الأحوال ، اذ أنه يكاد يكون من المستحيل أن يرجع المرء الى المؤلفات الأصلية فى كل ميادين الفلسفة مجتمعة . ومع ذلك فان المرء يشعر فى بعض الحالات بأن المؤلف كان يستطيع أن يرجع الى الأصل دون مشقة ، ومع ذلك آثر مرجعا ثانويا . فلسنا مثلا فى حاجة الى الرجوع الى أحد كتب « چود Joad » (الذى أعطاه المؤلف من الأهمية أكثر مما يستحق) لكى نقرر أن « كانت » يسمى مثالية باركلى بالمثالية المادية ، ويضعها فى مقابل المثالية النقدية (ص ٣٣٩) ، اذ ان النص الذى يذكر فيـــه كانت ذلك معروف ومشهور .

وفى كثير من الأحيان يشعر القارىء بأن أحكام المؤلف عامة أكثر مما ينبغى . ففى الحديث عن « غاية الفلسفة » عند المحدثين ، يصدر المؤلف هذا الحكم « وهكذا تحولت قيمـــة العقل عند المحدثين حتى أصبحت اداة نفعية بعد أن كان عند القدماء هبـــة الهية ، ورزح الفكر تحت ضغط الحياة العملية بعـــد أن كان فى يد القدماء يسمو بمقدار تحرره من قيود الحياة العملية . واذا كان هؤلاء المحدثون قد حرروا العقل من قيود العقيدة الدينية التى ناء بخدمتها فى العصور الوسطى ، فقد قيدوه بمطالب الحيـــاة الدنيا ومقتضياتها .. الخ » (ص ١٢٨) . وهكذا يرى المؤلف ان غاية الفلسفة عند المحدثين — على وجه العموم — عملية ، ويجمع بين بيكين وديكارت معا فى هذا الاتجاه ، على أساس أنهما لم يتحررا من طغيان روح العصر ، « عصر الآلات والصـــناعة » (ص ١٢٧) (مع أن عصر الصناعة قد بدأ يظهر بعد أكثر من قرن كامل من وفاة الفيلسوفين) ، كما يجمع فى هـــذا الاتجاه بين المذهب التطورى ، ومذهب المنفعة العـــامة ، والمذهبين البرجماتى والماركسى ، ولـكن هل هـــــذه المذاهب تمثل « الفلســـــفة الحـــديثة » كلهـــا ؟ أين اذن مئات الشخصيات والمذاهب الفلسفية ذوات الاتجـــاه النظرى فى القرن الســـــابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر ، بل فى القرن العشرين نفســـــه (مثل هوسرل وهيدجر) ؟ وفضـــــلا عن ذلك يبدو من النص السابق أن المؤلف يعد هذا التطور نحو الاهتمام بالحياة العملية تدهورا ، ومع ذلك فهو يعود فى التعقيب الذى يلى ذلك مباشرة الى الدفاع عن الاتجاه العملى ، بحيث لا يستطيع المرء تحديد موقفه من هـــــذه المسألة بدقة . والأمر الوحيـــد المشترك بين ما قاله أولا ، وما قاله فى التعقيب ، هو تكرار عبارة « الحياة الدنيا » — وهى عبارة لست أرى لها مكانا عند معالجة مثل هذه الموضوعات .

وترتب على هذا الاتجاه الى التعميم السريع ، أن كثيرا من المناقشات لم تبلغ المستوى المرغوب فيـــه من العمق . فعندما يناقش المؤلف آراء البرجماتيين ويشبهها بآراء السفسطائية ، ويهيب فى مناقشته بانتقادات أفلاطون للسفسطائيين (ص ٨٠) يشعر القارىء بأن فى هذا « تسطيحا » للمشكلة ، وابتعادا عن الخوض فى أعمق أغوارها . ذلك لأن من المؤكد أن البرجماتيين قد أتوا بآرائهم وهم على علم بماضى الفلســـــفة ، وبالانتقادات الكلاسيكية المعروفة . ومن المؤكد أيضـــا أنهم حاولوا الاتيان بما هو أعمق من ذلك . ولست أقول ان البرجماتية بمنـــأى عن النقد ، ولكنى أعتقد أنهم تجاوزوا مرحلة السفسطائية ، ومن هنا فقد كان من الواجب انتقادهم على مستوى أعمق من مستوى نقد أفلاطون للسفسطائيين .

ومثل هذا يقال على نقد المؤلف للماركسية ، حين يقول (فى ص ٨٢) ان ماركس لا يعترف بتأثير التفكير فى الواقع . وهذا نقد غير متعمق ، اذ ان ماركس ، مع اعترافه بأن العلاقات المادية للانتاج هى الأساس الأول للأفكار ، يعود بعد ذلك فيؤكد العلاقة المتبادلة بين « التركيب الأدنى » ، وهو هذه العلاقات المادية ، و « التركيب الأعلى » وهو ما يترتب عليها من الأفكار والمذاهب والعقائد . فالأولى هى الأساس حقا ، ولكن الثانية تعود فتؤثر حتى فى العلاقات المادية ذاتها . أى أن العلاقة بين الطرفين « ديالكتيكية » ، وهى أعقد من أن نعبر عنها فى الصيغة المبسطة القائلة ان العمل هو الذى يؤثر فى التفكير النظرى ، وأن الثانى مجرد نتيجة للأول .

وهذا ينطبق بالمثل على نقد الوجودية على أساس أن « قيام الانسان بواجبه نحو قيم المجتمع الذى يعيش فيه ، لا يطعن فى حريته ، ولا يتنافى مع استقلال شخصيته ، بل عليه أن يشارك فى تحقيق المصالح المشتركة ، وأن يتعاون مع أقرانه على تحقيق الخير العام .. » (ص ٨٥) . ذلك لأن الرأى القائل ان الوجودية تنكر كل شعور بالمسئولية الاجتماعية ، وكل اتجاه الى تحقيق الخير العام ، على أساس أنه يتنافى مع الحرية واستقلال الشخصية ــ هذا الرأى قد يكون معبرا عن النظرة « الصحفية » الى الوجودية ، ولكنه لا يمثل أعمق ما فى هذا المذهب ، ويتجاهل المناقشات العديدة العميقة لهذا الموضوع فى كتابات الوجوديين ، وما أبداه الكثيرون منهم ، فى تصرفاتهم العملية ، من تأكيد لشعورهم العميق بالمسئولية الاجتماعية .

ان الانطباع العام الذى يكونه القارىء عن موقف المؤلف من المذاهب والمشكلات ، هو أن الفلسفة كلها ترتد عنده الى تضاد بين طرفين يبالغ كل منهما فى موقفه ، وينبغى أن يتخذ المرء موقفا وسطا من تطرفهما . هذا هو النمط الذى يتكرر طوال الكتاب ، وفى كل ما تضمنه من المناقشات . ورغم أن المؤلف يعلن فى المقدمة أنه من أنصار المذهب العقلى ، فانه فى الواقع ميال الى اتخاذ الموقف الوسط فى كل الأحوال ، والى التخفيف من تطرف المذاهب وتأكيد أهمية التوفيق بينها . فهو حين يناقش ، فى الباب الأول مواقف المذاهب المعاصرة من طبيعة الفلسفة ، يتخذ موقفا وسطا بين كل طرفين متقابلين فيها . وحين يتحدث فى الباب الثانى عن الماديين والروحيين ، ينتهى الى نفس الموقف الوسط (مع ميل الى الروحية بطبيعة الحال) : وحين يناقش طبيعة المعرفة فى الباب الثالث ، يبين مزايا كل من الواقعية والمثالية وعيوبها بنفس الطريق « العامة » ، وينتهى الى وجوب الأخذ بما هو أفضل فى الموقفين معا . وبالمثل يوجه ضد العقليين انتقادات التجريبيين ، ويوجه ضد التجريبيين انتقادات العقليين . وفى الفلسفة الأخلاقية ينتهى المؤلف الى النتيجة نفسها ، اذ يقول أن « فى الاتجاه الحدسى والاتجاه الغائى .. عناصر حق وعناصر ضلال ... ولكن كلا الاتجاهين على حدة غير مقبول » . (ص ٤٤١) . وفى فلسفة الجمال يوفق بين الرأيين العقلى والوجدانى فى تقويم الجمال ، وبين الرأيين الذاتى والموضوعى فى طبيعته .

وهكذا تتخذ « تعقيبات » المؤلف فى الكتاب كله هذه الصورة الواحدة . وربما كان هذا المنهج مفيدا اذا استخدم فى حالات معينة ، ولكنه فى رأيى لا يعطى القارىء صورة كاملة عن طبيعة الخلافات الفلسفية اذا ما طبق فى كل الحالات دون تمييز ، وانما هو يبسط المسائل أكثر مما ينبغى ، ويصور الأمر كما لو كان فى كل مشكلة اتجاهان متضادان واضحا المعالم ، يستطيع المرء اذا وقف منهما موقفا وسطا أن يأخذ خير ما فيهما . ولو كانت المسألة على هذا القدر من البساطة لهان الأمر ، ولكن الذى يحدث فى معظم الأحوال هو أن خلافات الفلاسفة تكون أعمق وأشد تعقيدا من أن تدخل فى هذا الاطار المبسط .

ومع ذلك ، فمن الممكن ايجاد مبررات مختلفة لهذا المنهج الذى اتبعه المؤلف ، أهمها هو الطابع « المدرسى » للكتاب ، الذى ربما أدى بمؤلفه الى الامتناع عن خوض المنازعات التفصيلية ، والاكتفاء من كل مشكلة بأوجهها العامة . وربما كان فى طبيعة المؤلف ذاته اتجاه الى الأخذ بالحلول الوسطى ، والابتعاد عن التطرف والتعصب . وبهذا المعنى نستطيع أن نقول ان الكتاب بأسره انما هو « توفيق طويل » بين المتعارضات فى المذاهب والمشاكل الفلسفية .

دكتور فؤاد زكريا

على هامش الأدب والنقد

تأليف : علي أدهم

الناشر : دار الفكر العربي

عدد الصفحات ١٦٢ صفحة ١٤×٢٠ — الثمن ١٥

هذا كتاب قرأته منذ سنوات ، ولا أزال أرجع اليه بين الفينة والفينة ، فأشعر بما كنت أشعر به من قبل من لذة عارمة ومتعة زائدة وفائدة كبيرة ، وتدهشني فيه ثقافة الكاتب الواسعة وآفاق تفكيره البعيدة ، وإلمامه بالثقافة العربية ، والثقافة الغربية أيضا .

وقد قرأت قديما مثلا لاتينيا جاء فيه « احذر رجل الكتاب الواحد » وهم يقصدون بذلك الرجل محدود الثقافة ، الذي يدور في دائرة واحدة لا يتعداها ، ويهيم في حلقة مفردة لا يتخطاها . لأن التنوع في الثقافة يجب أن يكون السمة البارزة للأديب والطابع المميز للكاتب ، فقد انتهى العهد الذي أصبح فيه الانسان يقتصر على ثقافة واحدة ، ولغة واحدة ، وجاء العهد الذي الغيت فيه المسافات الغاء ، وارتبط فيه العالم ارتباطا وثيقا ، واتصلت فيه الدول اتصالا متينا ، واصبح التخلف عن ركب الثقافة العالمية قصورا ليس بعده قصور وتقصيرا ليس بعده تقصير .

والمؤلف الذي ندرس كتابه في هذه المرة مؤلف واسع الثقافة ممتد الافق ، تحمل ثقافته اصباغا متعددة والوانا متباينة ، وضروبا مختلفة ، وهي في أثناء هذا كله لا تكتفي بالقشور ، ولا تنبهر بالمظهر دون الجوهر انما تصل الى الأغوار ، وتغوص الى الأعماق ، وتستخرج لنا الزبدة الفكرية النظيفة ، التي تستأثر باعجابنا وتستحوذ على قلوبنا .

والمؤلف الكبير علي أدهم في هذا الكتاب أشبه باستاذنا الراحل عباس محمود العقاد ، الذي تتعدد ألوان ثقافته ، وتتنوع معالم تفكيره فيخوض في مباحث شتى ، ويعرج على موضوعات عدة ، لا يصرفه عن ذلك شيء ، ولا يمنعه من الوصول بثقافته الى قرائه سدود أو حدود ...

فهو تارة يتحدث عن أبي الطيب المتنبي ويسايره في طموحه وجموحه حتى يصل به الهوس الى حالة كتلك التي وصفها دعبل الخزاعي في قوله :

اني لأفتح عيني حين أفتحها
على كثير ولكن لا أرى أحدا ..

وقد علل المؤلف غرور المتنبي فقال ان فرط ثقة الفنان بنفسه واسرافه في حبها وكثرة تعلقه بأهدابها يقابلها من ناحية أخرى رغبة منافسيه وانداده وحساده الجنونية الطاغية في انتقاص قيمته وأنكار فضله وتشويه محاسنه واذاعة مثالبه ، والحرص على النيل منه وهدم بنائه » .

وهذا التعليل يكاد يكون مقبولا في بعض مراحل حياة المتنبي غير أنه كان في مراحل أخرى من حياته مريضا مرضا نفسيا حتى لقد خرج تعاظمه عن المألوف ، وخالف المعروف ومن ذلك انه اشترط على سيف الدولة الحمداني ملك حلب في أول عهده بالاتصال به انه اذا انشده مديحه لا ينشده الا وهو جالس ولا يكلف تقبيل الارض بين يديه ولما رحل الى مصر بعد حنقه على سيف الدولة واتصاله بكافور الأخشيدي كان يقف بين يديه وفي رجليه خفان ، وفي وسطه سيف ومنطقة، وكان يركب بحاجبين من مماليكه وهما بالسيوف والمناطق ، وروى أبو علي الحاتمي قصة وصوله

الى بغداد وكيف كان الكبر يغمره والصلف يدثره، ولا يرى أحدا الا ويعتقد تمام الاعتقاد أنه يمتاز عليه ، وان العلم مقصور عليه ، وان الشعر لا يعذب الا على لسانه .

والناس كلهم فى نظره طغام فى طغام ، يستوى فى ذلك الملوك والسوقة ، والأشراف والعبيد .

ودهر ناسه ناس صغار
وان كانت لهم جثث ضخام

أرانب غير انهم ملوك
مفتحة عيونهم نيام

وشبه الشيء منجذب اليه
واشبهنا بدنيانا الطغام

وهو فى نفس الوقت يرفع بعض ممدوحيه الى السموات العلا ولا يتورع من أن يضفى سمات الالوهية عليهم فيقول فى على بن ابراهيم التنوخي « مذل الأعزاء المعز » وفى كافور الأخشيدى « جرى الخلف الا فيك انك واحد » .

على أن هذه المثالب التى رسبت فى نفسية المتنبى لم تحل دون أن ينظم الرائع من الشعر والعذب من القصيد ، ويصير علما خفاقا من اعلام الادب العربى يستحق الدراسة ، وهو جدير بالمباحث الضخمة والفصول المتنوعة .

وربما كان الغموض فى شخصية المتنبى عالما يستهوى الأدباء والباحثين كما كان الغموض فى شعره مبحثا قيما من مباحثهم تناول الفاظه ومعانيه كقوله :

وما أرضى لمقلته بحلم
اذا انتبهت توهمه ابتشاكا

فالابتشاك فى اللغة هو الكذب ، والمتنبى يأبى الا أن يستخدم هذه اللفظة الوحشية دون تردد أو احجام .

وقد درس الأستاذ على ادهم فى كتابه أبا الطيب المتنبى وغروره وطموحه وحزنه ، وهو فى دراسته يحاول أن يرد هذه الظواهر النفسية الى أصولها كما يرى أن طموحه هو باعث حزنه وكبرياءه سبب كثرة خصومه وأعدائه وافراطه فى طلب الدنيا هو سبب ما يروى عنه من الشح والبخل .

وكل هذه تعليلات سليمة تحدث عنها الأستاذ على أدهم بالتفصيل فى أحد فصول هذا الكتاب فى هذا اللون العربى من ألوان الثقافة التى تضمنها هذا الكتاب .

كما اشتمل أيضا على فصول عن عمران بن حطان وعن آثار الحب ومعالم الصداقة فى شعر أبى تمام .

وقد خرج علينا الأستاذ على أدهم بنظرية طريفة فى شعر أبى تمام فحواها ان من يقرأ باب الغزل فى ديوانه قل أن يشعر فى خلال أبياته بنغمة الحب الصادق أو بأثر الوجدان المعقد المقيم وان اكثر هذا الباب فى ديوانه مقطوعات من الشعر تتفاوت طولا وقصرا ، وقوة وضعفا يجرى فيها على التقاليد المتبعة ويردد فيها المعانى المطروقة ، فلا يحلق ولا يرتفع بل لعله فى بعضها يسف ويسخف وانه أقدر على وصف عاطفة الصداقة وأعرف بها لأن الحب عاطفة ثائرة غلابة لا يحتملها طبعه الهادىء ونفسه المطبوعة على التفكير والروية . فالحب صخب مثير للزوابع مثل المردة أما الصداقة فواثقة بنفسها راضية قانعة .

وهذه النظرية التى أثارها الأستاذ على أدهم تتفق مع طبيعة أبى تمام الهادئة ، التى تهتم بالألوان العقلية والألوان اللفظية ، وتسعى الى استخراج المعانى الطريفة ، وتفترعها افتراعا كما تفترع العذراء . فهو لا ينظم الشعر ارتجالا دون روية أو تفكير ، وهو لا يطلق الشعر كما يقول فيكتور هوجو كما يغرد البلبل وتصفر الريح انما يكد عقله فى نظمه ويعمل تفكيره فى قرضه حتى تستوى القصيدة من الشعر فى ذهنه وتخرج فى حلة قشيبة ، واطار جذاب خلاب وهو فى ذلك يقول :

خذها ابنة الفكر المهذب فى الدجى
والليل أسود رقعة الجلباب

وهو حين يتحدث عن أبى نواس أو ابن هانىء يصوره بشاعر ابيقورى النزعة وينسبه الى ذلك الفيلسوف الاغريقى « ابيقوروس ٣٤١ – ٢٧٠ ق . م » الذى جعل غاية الحياة عنده اللذة الجنسية وكان يرى أن اللذة التى هى الغاية ليست تلك الحركة العنيفة التى تضطرب بها حينا

لم يكون بعدها ما يكون بل هى الاستمتاع بالهدوء والطمأنينة أطول وقت ممكن .

نسب على أدهم أبا نواس الى هـذه المدرسة الأبيقورية المعروفة فى تاريخ الفلسفة غير أنه قال ان العهد الذى عاش فيـه أبو نواس كان يغرى بالابيقورية لأن الحياة حفلت بمظاهر الترف ومجال الأناقة ، وتوافر الثروة مـدعاة الى الانغماس فى الرفاهة ، والاسراف فى طلب المتعـة وانطلاق الشهوات من عقالهـا فضـلا عن أنه كان يقظ الحواس ، حاد الذكاء قـوى البـادرة . يحسن الخروج من كل مأزق والتغلب على كل عقبة .

ويضيف الأستاذ على ادهم قائلا « ان رجلا له مثل هـذه السرعة فى الاحساس والتصور والعمل ، وهذا الانسجام بين القوى العقلية والقوى البدنية لابد أن يصـطدم بقوانين العرف المتبع والآداب المرعية .

وهذا التعليل الذى أثاره الأستاذ على ادهم يعـد تعليلا جميلا ما فى هذا شك لأنه يتصل بالبيئة التى عاش فيها الشاعر وشرب من لبانها وتربى بين أحضانها واكتوى بنارها كما نهل من عقارها .

وقد أيد الأستاذ على أدهم رأيه برأى شوبنهور القائل بأننا اذا سلكنا فى الحياة أى طريق فاننا نظل غير قانعين به متطلعين الى سلوك غيره ، فالعابد الزاهد تمر به أوقات يسأم فيها العبادة ويمل الزهد ولكنه يكافح هذا الملل ويطرد وساوس شيطانه ، ويلقى فى ذلك الشدائد ويكابد الثورات العنيفة .

هذه لمحة من جوانب الثقـافة العربية التى احتواها هـذا الكتاب ، وهناك لمحات أخرى من الثقافة الأجنبية تظهر بين ثنايا الكتاب فى ثوب قشيب وعرض جميل ، وصـورة أخاذة ، واطار جذاب .

ولعل أجمل هـذه الفصول هو الفصل الذى كتبه عن شوبنهور والنقـد الأدبى مما يستحق التوضيح لشموله على حقائق ادبية رفيعة فقد أثار شوبنهور العيوب التى امتلأ بها تاريخ النقد فى العالم فقد عجز عن تقدير المبتكرات الفنيـة والأدبية المعاصرة وقد ساق الدليل على ذلك فقال ان جونسون مثـلا يقول عن منظومة جون ملتن العظيمة المعروفة بالفردوس المفقود « ان قراءتها واجبة وليست متعة » كما أن أشـعار كيتس وبيرس شللى قوبلت بمقابلة سيئة من نقاد عصرهما وكتاب كارليل العظيم عن الثورة الفرنسية واجه عاصفة من النقد الحانق حين ظهوره ، وكذلك ثاكرى وجـين أوستن لم يرحب بهمـا فى بادىء الأمر .

ويضيف على ادهم على لسـان شوبنهور بأن جيتى كان شاعرا ناقدا ومع ذلك فان أحكامه على شعراء الانجليز والفرنسيين المعاصرين له تحير الفكر وتربكه وقد رفض أن يقدر شللى وفى عام ١٨٢٤ تكلم مع صـاحبه المستشار « ميللر » باستخفاف ، وكان قد مضى على وفاة شللى عامان وكذلك لم يعجب بكوليردج وكان يغالى بقيمة بيرون وصرح بانه الشاعر الوحيد الذى يعده نظيرا له .

وهذه الحقائق الدامغه التى ساقها شوبنهور تدفعنا الى الايمان بحقيقة علمية ثابتة وهى أن النقد الأدبى فى مختلف مراحل التـاريخ تعرض لأهواء سياسية حينا واغراض شخصية حينـا آخر كما تعرض لعصبيات دينية فى بعض الاحوال فاختلت تبعا لذلك أحكام النقاد .

وهذه الحقيقة التاريخية الثابتة هى ما نحاول أن نبرىء منها النقد فى هذه الأيام حتى يكون المجد للعمل الأدبى وحده دون محـاورة أو مـداورة ، ودون مصلحة أو غرض ، كما يكون ميزان النقد سليما سواء أكان من ذهب أو حديد ... فليست العبرة بنوع الميزان كما هى العبرة بقيمـة العمل الأدبى نفسه وثقله فى هذا الميزان .

على أن شوبنهور أثار رأيا طريفا حول المجلات الغربية جـديرا بالدراسة فى هـذه الأيام التى ازدهرت فيه المجلات ازدهارا عظيما فهو يقول ان المجلات الأدبيـة يجب أن تكون حاجزا يتقى به طغيان الكتب غير النافعة ، ويجب أن تكون أحكامها عادلة غير مغرضة ، وصـادقة لا تعرف المجاملة

ولا الموازبة ، وأن تمزق جلود الكتب التافهة بالسياط فى غير هوادة وبلا رحمة ، وبذلك تؤدى واجبها وتنهض برسالتها وتضع حدا لخديعة الجمهور وتضليله وافساد ذوقه .

وهذا ما أعتقد أن الأستاذ على أدهم يسير على هديه فى سياسة هذه المجلة الأدبية ، وهو ما أرى أن يكون خطة للمجلات الأدبية الأخرى حتى لا تنشر الغث من المقال والسخيف من الأفكار والتافه من الأقوال كما تعمد الى تقييم العمل الأدبى وتقديره دون أى اعتبار اللهم الا وجه الحق وحده .

وقد اشتمل كتاب الأستاذ على أدهم كذلك على فصول ممتعة عن الثقافة والمجتمع والأدب والسياسة والكتب والكتاب والنقد الفنى بين المذهبين الاجتماعى والفردى وأثر النبوغ والعبقرية فى الأدب والفن والتقدير الفنى بين النظريتين العلمية والفنية والحياة الفكرية فى عهد المشادة وعصر الاستقرار .

ومن الفصول الطريفة التى تضمنها كتاب «على هامش الأدب والنقد» فصل عن الشيطان فى الشعر الحديث ورابندرانات طاغور وآرائه فى الحياة والفن .

ولعل من أجمل آراء طاغور أن الشاعر الفنان هو الذى يطلق فى نفوسنا الشاعر الفنان والفلسفة هى معبد الحق والشعر هو حرم الجمال ...

ترى كم من الشعراء تأثر بفكر طاغور .. ؟!!

دكتور جمال الدين الرمادى

سطور من كتاب ...

« ولا نستطيع ، نحن الانجليز ، ان ندرك معنى هذا الاهتمام بالمنفعة ، بينما يكره الفرنسيون فى الواقع القيام بأعمال غير مجدية . ولقد انزلق لسانى ذات يوم فى الحديث، وقلت مدللا على سعيهم الحثيث نحو المنفعة بأنهم ينجبون من الأطفال ثلاثة بدلا من اثنين ، لا بمحض الصدفة ، ولكن من أجل الحصول على العلاوة الاجتماعية » .

... مذكرات الرائد طومسون

فن المكياج

للسينما والمسرح والتليفزيون

تأليف : فنسنت ج. د. كيهو
ترجمة : أمين سلامه



من معالم الانطلاقة التى تعاصرها فنوننا الدراميـة ، فى المسرح والسينما والاذاعة والتليفزيون ، ما تشهده المكتبة العربية فى السنوات الأخيرة من أبحاث ودراسات مؤلفة ومترجمة تستهدف تعميق الظاهرة الدرامية عن طريق تزويد القارىء ، محترفا كان أو هاويا ، بحصيلة من المعلومات تسد فيه الحاجة الملحة الى المعرفة للحاق بالركب فى خطوه المتدفق الجرىء .

ونظرا لأن فن الدراما لم يستتب بين ظهرانينا على أوضاعه الحالية ذوات الرقعة المتسعة الا منذ عهد قريب ، فقد كان من الطبيعى أن تنشأ ثغرة كبيرة بين حماسة الانجاز والقدرة على الاستيعاب الواعى .

مثل هذه الثغرة كان من الممكن أن تنطوى على تأثير معرقل بالنسبة لمشروعات التطور ، حيث انه من غير المألوف أن يزدهر الفن ، أى فن ، الا فى تربة منقلبة تتميز بكفاءة فى التذوق .

والمعروف ان التقبل والتذوق فى الفن لا يتأتيان بغير الادراك الحصيف لمكونات العمل الفنى ، وهو ما نعنيه غالبا عندما نذكر لفظة الثقافة الفنية . فرائد الدراما .. سواء أكان متفرجا أو مشجعا أو مشتغلا بالفن أو حتى اداريا منظما .. لا ينتظر أن يبلغ أى شأو فى ميدان تخصصه ، أو تحمسه ، ما لم يكن على المام بعناصر الموضوع الذى يحتضنه ، ونصيب كل منها فى النتيجة العامة التى تمثل العمل الناجز النهائى ، اذ أن المتعة الفنية ، كما يقول أرسطو ، انما تعتمد على نسبة الأجزاء الى الكل ، وادراك ما بينها من انسجام وتوافق .

الناشر : دار الفكر العربى ٤٤٢ ص
١٧×٢٤سم - الثمن ١٢٥ قرشا

ولما كان العرض الدرامي عملا جماعيا تتضافر على انتاجه جهود متعددة تجمع بين الأدب والفن والعلم والصنعة الحرفية ، لذلك كنا نعتبر كل مساهمة ، بالترجمة أو التأليف ، في أي من هذه المجالات بمثابة قطعة هامة في الجسر الطويل الذي نريد له أن يعبر بنـــا الثغرة الحالية الى آفاق الابداع والأصالة .

تلك تحيـــة سريعة لابد منها الى الكتاب الذي نحن بصـــدده حتمتها ضرورة التنويه باهمية الموضوع الذي يعالجه ، وعلى الأخص بالنسبـــة لأوساطنا الفنيـــة حيث لا نكاد نعرف بين من يمارسون المهنـــة من يجيـد الاطلاع باللغـات الأجنبية ، وحيث لا تزال عمليات الماكياج تخضع لأساليب اجتهادية باستثناء حالات قليلة فردية نذكر منها ماكياج الأم في فيلم « المرأة المجهولة » الذي أثار به الماكيير الراحل عيسى أحمد اهتمام النقاد واستحق عليه جائزة الدولة .

والواقع ان الكتاب ، بالاضافة الى دوره البناء في محيط الثقافة الفنيـــة ، يعتبر أول جهد من نوعه في هذا المضمار ، وهو لهذا يتحمل في ترجمته العربية عبء الاقتحام والنحت .. اقتحام أرض غير معبدة ، ونحت المصطلحات العديدة في دروبها الوعرة . ويكفي لادراك مدى صعوبة هذه المهمة ان الـكتاب مضطر بسبب طبيعـــة موضوعه الى التعرض لبنود هندســـية وعضوية وطبيـــة ، كالأضاءة ، والعدسات ، وخامات الأفلام ، والملابس والتشريح ، والعقـــاقير ، والالكترونات ، والكيمائيات .

والطريف في الأمر انه على الرغم من أن جميع أنواع العرض الدرامي ووسائله ، باستثناء الاذاعة الصوتية ، تستعين بالماكياج كعنصر ضروري ولازم لابراز الملامح بالسمة المنشودة ، وعلى الرغم من ان معظم المعاهد الدرامية ، ومنها معهدا السينما والمسرح في بلادنا ، تضع هـــذه المادة الأساسية ضمن برامجها التعليميـــة ، الا أنه ، لأمر ما ، بقيت الأبحاث والكتب الدراســـية التي تتعلق بالماكياج شحيحة وقليلة في جميع اللغات ، حتى لتكاد تعد ـ ما ظهر منها في جميع انحاء العالم ـ على أصابع اليد الواحدة .

ربما كان السبب أن أهل الماكياج يعتبرون فنهم خلقا متفردا يرتبط بذاتيـــة الممارسة ومن هنا لا تصلح تجاربه الشخصية للتطبيق العام ، أو ربما لأن عملية الماكياج تنصب على ملامح فنانين لا يشبه أحـدهم الآخر في التقاطيع والقسمات وبالتالي لا يمكن تطويعها للاستخدام القياسي ، أو ربمـا لأن جانبا هاما من هذا الفن الزئبقي يعتمد على أسس علمية بحتة وبناء عليه فكل من يتصدى لمزاولة المهنة اما ان يعرف هذه الأسس سلفا أو يتحصل عليها من مصادرها الأصلية .

سواء اكانت هذه هي كل الأسباب ، أو بعضها أو غيرها ، فالمهم أننا بازاء كتاب مستفيض قرر مؤلفه فنسنت كيهو ، الحاصل على بكالوريوس الفنون الجميلة ، ورئيس المجلس الأمريكي لأبحاث الماكيـاج ، أن يجعل منـــه مرجعا حديثا حافلا بالمعلومات والبيانات والارشادات .

والكتاب وان وضع أساسا لماكيـــاج السينما والتليفزيون ، الا أنه يحوي فصلا طيبا عن ماكياج المسرح لايضـاح الخلافات الجوهرية بين الماكياج المباشر الذي يطالعه الجمهور في دار المسرح على أبعاد متفاوتة من الممثل وتحت أضواء شديدة ، وذلك الذي ينتقل بوســيط آخر عن طريق الكاميرات السينمائية أو الالكترونية . اذ يقول « ان الغرض من الماكياج المسرحي هو معادلة أثر المســافة بين النظـــارة والممثلين بتعبيـرات الوجه (*) ، وموازنة شدة الضوء على المسرح .. ولذلك .. يجب أن يعمل الماكياج المسرحي بطريقة لا تبدو صـــناعية لمن ينظر اليها من الصفوف الامامية ، ولا تفقد بهاءها في عيون من بالصفوف الخلفية ... ولما كانت الاضاءة تلعب دورا هاما ، بل وكلي الأهمية ، في آثار الماكياج المسرحي ، وجب ان نفهم الفرق بين الألوان الأوليـــة للصبغات والألوان الأولية للضوء .. فهي في الصبغات .. الأحمر والأزرق والأصفر ، فاذا خلطت بنسب متساوية تألف منهـــا لون رمادي .. وهي في

(*) أوردها المترجم خطأ على أنها « مصطلحات وجهية » .. الأمر الذي لا يستقيم له المعنى .

الضوء .. الأحمر والأزرق والأخضر ، فاذا مزجت بنسب متساوية الشدة تكون الضوء الأبيض .. »

فى مثل هذه الحقائق العلميـة البسيطة يكمن الفارق الكبير بين أساليب المعالجة فى ماكياج المسرح والسينما والتليفزيون . ففى المسرح تتدخل المسافة وأضواء الكشافات الملونة فى العملية . وفى السينما تتدخل زوايا الكاميرا ، وأوضاع الأضواء المسلطة وكمياتها ، وخامة الفيلم نفسه من حيث درجة الحساسيـة وصفته اللونية ، وحجم الشاشة الكبير الذى يضخم الأشياء حتى « ان طول الرأس وحـده يمكن أن يزيد عن ٢٥ قدما .. » . وفى التلفزيون يتدخل تعدد أجهزة التصوير وتعـدد أبعادها وزواياها ، وكشافات الاضاءة العامة التى يسلط معظمها من أعلى ، وطبيعة النقل الفورى فى الأجهزة الالكترونية حتى فى حالة التسجيل ، والاقتراب الأليف بين المتفرج والشاشة الصـغيرة ذات القـدرة الفريدة على تجسيم المعايب .

لهذا يتعرض الكتاب فى فصوله الأولى لتحديد الصلة بين الاضاءة والماكياج ، فيؤكد أن الاضاءة غير الصحيحة قد تفسد الماكياج المتقن أو تقلل من احكامه ، ويصر على ضرورة وجود التعاون التام بين أخصائى الماكيـاج ومهندس الاضاءة والمصور ، لتلافى ما يمكن أن يحدث من مشاكل فنية من المرشحات ، أو قوة الأجهزة ، أو زوايا التسلط وما ينجم عنهـا من ظلال وتجاويف وبروزات ، تؤدى الى طمس المعـالم أو تغيير طبيعتها أو تحريف مميزاتها .

ثم يتحدث عن العلاقة بين نوع الفيلم والماكياج ، فيسرد أنواع الأفلام القياسيـة التى تستخدم بصفة شبه عامة فى التصوير بالأبيض والأسود أو بالألوان ، ويبين الصفات المشتركة بينها وخصائص كل منها على حدة ، ودرجة حساسيتها بالنسبة للتعرض الضوئى وقـدرتها النوعية على التأثر بالألوان الطبيعيـة ، وما تفتقده أو تكتسبه من مميزات عند التحميض والطبع .

ولا يكتفى المؤلف بهذا ، وانما يتصدى فى نفس الباب التمهيدي للعـلاقة بين الملابس والماكياج ، فيبرز حقيقة هامة هى أن التليفزيون بصفة عامة أكثر قابلية على ابراز التقابل فى أنسجة الثياب من السينما ، وهى نقطـة حرفت الترجمة مفهومها وعكست المقصود منها بحيث أصبح المعنى يفيد ارتداء الثياب ذوات الألوان المتناقضة فى التليفزيون عنه فى السينما .. ! وهى مسألة لا يشير اليها النص من قريب أو بعيد .

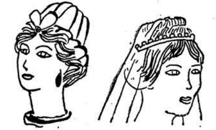
وعلى أى حال ، يبدو أن المؤلف يحس بثقل مادته التمهيدية وما تتضمنه من مسـائل علمية ورياضية جافة اذ انه يسردها فى عجلة كبيرة وكأنما يريد أن يتخلص منهـا فى أسرع وأضيق وقت ممكن . لذلك زادها الاقتضاب جفافا على جفاف ، حتى لتبـدو أشبه بجرعات الدواء التى لابد من تعاطيها دون طويل تساؤل واستفسار .

غـير أن المؤلف يعوضنا عن هـذا الاسراع فى سياق الكتاب الذى يتميز بالتـأنى الشـديد فى كافة مراحل الماكياج ودقائقه ، موضحا مناهج العمل فى كل مرحلة ، وما يسـتخدم فيها من مستحضرات فى المسرح أو السينما أو التليفزيون . وفى حالات التصـوير بالأبيض والأسـود أو بالألوان .

فبعد أن يقدم فصلا كاملا عن تشريح الوجه وأشـكال الرؤوس الطويلة والقصيرة ، ونسب التقسيم فى تقاطيع الوجـه ، والـوان البشرة والشعر والعيون ، ينتقل الى تعداد أدوات الماكياج التى يحتاجها الأخصـائى فى عمله من القطن الى الكحول الى الأمشـاط والمعاجـين والمزيلات والمساحيق واقلام التظليل والأصباغ والطلاءات والمقصات والملاقط وجدائل الشعر والاصماغ الى اعضاء الوجه الصناعية .. والصابون .

ويوضح الكتاب ستة انواع من الماكياج ، يبدأها بما يسمى الماكيـاج البسيط أو السوى ، وهو الذى لا يحاول فيه الأخصائى تغيير سن الممثل أو سماته ، الى حـد ما ، الا لتجميله وتوضيح المفاتن الطبيعيـة فيه ، وزيادة اللون الطبيعى للوجه ، وابراز ملامحـه التعبيرية . ويتحفظ المؤلف من الدخول فى مقارنة بين هذا النوع والنوع الثانى الذى يسميه بالماكياج التصحيحى ، اذ يقول

ان الماكياج البسيط يتضمن فى أغلب الأحـوال مبادىء التصحيح للحصول على التوازن المثالى للوجه واستدارته ولونه .



وطبيعى ان يتحمس كتاب فى فن الماكياج لمادته ، اذ يعترض المؤلف على السياسة التى ينتهجها بعض المخرجين ممن يأنفون نعومة الوجه الناجمة عن استعمال الماكياج ويحاولون الحصول على التأثير التسجيلى الطبيعى بالعزوف عن استعمال أى نوع من الماكياج . ونصيحته فى هذا أن عدم استعمال الماكياج يضفى على الممثلين صفة العمومية المألوفة باظهار كل عيب أو بقعة فى وجوههم .. « عندئذ تكون الحقيقة الواقعية مكروهة ، وتضيع أجادة الممثل تمثيل دوره ، لأن ذهن الجمهور قد يشرد عن متابعة الدور بسبب عدم استعمال الماكياج . وعلى أية حال ، اذا أراد المخرج التمسك بالعمومية المألوفة فلا مانع من استخدام اقل قدر من الماكياج .. » ثم يستدرك محذرا .. « و بطبيعة الحال لا ينطبق هذا على عمليات الألوان ، بل على صورة الأبيض والأسود للتلفزيون والسينما » .

ويسوق المؤلف من الأدلة ما يؤكد به أهمية الماكياج ، اذ يقول « ان الصفات الطبيعية للبشرة تختلف بدرجات متفاوتة من الحمرة والزرقة والصفرة والبنية . وكل هذه العوامل بالأضافة الى ما يكون ظاهرا بالوجه من آثار الحلاقة أو النمش أو البقع أو الجروح تسىء الى الصورة التى يبدو عليها شكل الممثل على خشبة المسرح او على لوحة التلفزيون أو على شاشة السينما ولكن الماكياج « يستر ويخفى كل هذه العيوب . واذا عمل الماكياج بمهارة أمكن تصغير حجم الأنف الكبير مثلا ، أو الذقن العريض ، أو عظام الفك البارزة ، أو الاتساع الكبير فى العينين ، أو تقاربهما المتناهى فى الصغر ، واصلاح كثير من العيوب الطبيعية فى تكوين الوجه . »

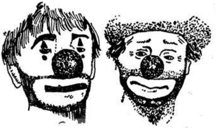
وهذا ما يعنيه المؤلف بالماكياج التصحيحى ، الذى يتناوله بالتفصيل للنساء والرجال والأطفال . ولا ينسى فى ختام هذا الباب أن ينبه الى بعض الأخطاء الشائعة كاهمال مد الماكياج الى خط الشعر ، وحذف ماكياج الأذنين والرقبة ، ونسيان عمل ماكياج لليدين والزراعين ، والافراط فى استخدام الكميات ، أو مواد التبييض ، أو اهمال الاحتفاظ بلمعة البشرة الطبيعية على وجه الرجال .

أما النوع الثالث فهو ماكياج الشخصيات . وهنا يحذر المؤلف من المبالغة فى الاعتماد على الماكياج ، كمحاولة تحويل الرجل البدين الى نحيف مثلا .. « فقد يكون فى الامكان جعل الشخص السمين يبدو انحف من حقيقته ولكن لا يمكن جعله نحيفا . » ويوصى باستعمال ادوات المطاط والبلاستيك لخلق أى فرق فى تركيب الوجه .. مع توخى العناية البالغة فى استعمالها لكى تندمج حافاتها فى الوجه . وينبه بضرورة مراعاة ان يكون ماكياج الشخصيات صعب التمييز كماكياج فى اللقطات القريبة بالنسبة للسينما والتلفزيون « فغالبا ما تكون عين الكاميرا أكثر انتقادا وأصعب ارضاء من عيوننا » .

ولما كان من العسير وضع قواعد خاصة لهذا النوع لتعدد الشخصيات واختلافها بتعدد الأعمال الدرامية واختلافها ، فان المؤلف لا يجد أمامه الا ان يحيل ناشىء الماكياج فى بحثه عن خواص وجوه الشخصيات الى صور الجرائد والمجلات .. فضلا عن صور الحياة نفسها .

وينتقل بعد هذا الى ماكياج الأعمار فيبرز اللمسات الجوهرية بين السن المتوسطة والمتقدمة موضحا كيف تبدأ نضرة الشباب تغادر وجنات السيدات ، وكيف تبدأ لحى الرجال فى الكثافة ، وكيف يأخذ الشعر فى التحول الى اللون الرمادى، وكيف يزحف الصلع أحيانا الى قمة الراس أو من مقدم خط الشعر ، وكيف تبرز عظام الوجنات

أو تتضخم الخدود ، وكيف تبدأ النساء فى منتصف العمر تفقد طراوة شبابها بينما يصير الرجال أكثر أناقة . ويتعرض فى هذا الفصل للتجاعيد ، وتصفيفات الشعر ، وتركيب عظام اليدين ، وقلنسوات الشعر المستعار ، والشوارب واللحى . ويتمهل ليجيب على بعض المطالب الدرامية التى تستدعى فى بعض الأحيان التقدم التدريجى الى الشيخوخة أو الرجوع بالعمر الى الوراء .



وفى النوعين التاليين يتناول المؤلف ماكياج الأجناس وماكياج العصور التاريخية . فيبين فى النوع الأول أشكال الرءوس والعيون والشفاه والأنوف وخطوط الفكين والشعر بالنسبة لأجناس أوروبا وأمريكا وآسيا وأفريقيا . ويبدأ فى النوع الثانى من ماكياج انسان ما قبل التاريخ بما يستفاد من الحفريات والدراسات التاريخية ، وينتقل منه عبر الأزمان الى مصر الفرعونية وشبه جزيرة العرب والاغريق والرومان ثم الى العصور المظلمة فعصر النهضة فالقرن السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر ، موضحا سمات كل عصر من حيث الخطوط والألوان .

ويضيف الى كل أنواع الماكياج الستة السابقة نوعا خاصا عن الشخصيات المتميزة كالساحرات والعفاريت والدمى والمهرجين .

والى هنا لا ينتهى الكتاب ، اذ ينتقل المؤلف الى مناقشة أحدث الأساليب العلمية فى الماكياج باستخدام المطاط والبلاستيك والقوالب والأعضاء الصناعية ، كما يتعرض لطرق احداث المؤثرات البدنية المتنوعة كالعرق والدموع والحروق والجروح والكدمات ، ويفرد فصلا خاصا للشعر وطرق تصفيفة واستعماله ، ثم يختتم الكتاب بسبعة ملاحق عن أنواع الأفلام وبطاقات الماكياج والمرشحات الضوئية وجدول التصوير وحقائب الماكياج ومصادر أدوات الماكياج ولوازمه فى كل من أمريكا وانجلترا .

انها رحلة طويلة خلال مجلد ضخم يتناول أسرار مهنة دقيقة عويصة ، لا يخفف من عناء مشقتها الجادة فى محاولة هضم المعلومات الفزيرة التى تضمها صفحاته الا تلك الصور واللوحات والرسوم الايضاحية العديدة التى تفسر كل خطوة من خطوات العمل وتكاد تغنى عن القراءة أحيانا بشمولها التفصيلى . وانه لمما يؤسف له أن الطبعة العربية ، على الرغم من ارتفاع سعرها ، لم تشأ استخدام الورق المصقول ولو فى الصور على الأقل ، حتى تتم الغاية التى يستهدفها الكتاب من الاستعانة بمثل هذه الوسيلة للايضاح والشرح والتفسير ، أما والحال هذه ، فانك لا تكاد تتبين الفروق التى يرمى اليها المؤلف بين المراحل المتعددة للعمليات المختلفة والتى يبرزها بالصور واللوحات .

كما أنك تحس أحيانا بفتور فى الصياغة يرجع فى بعضه الى أسلوب المؤلف العملى التعليمى الذى يقرب من العمليات الحسابية ، وفى بعضه الآخر الى حرفية الترجمة التى تنزلق أحيانا الى أخطاء مهنية واصطلاحية ..

ومع ذلك فالكتاب فى حد ذاته ذخيرة تقتنى ، ومجرد الأقدام على ترجمته جسارة مشكورة .

كامل يوسف

مصطفى لطفى المنفلوطى

الأديب الاشتراكى

تأليف : محمد شلبى



الناشر : الدار القومية للطباعة والنشر

١٢٨ ص ١٧×٢٤ سم

الثمن ٢٥ قرشا

من يطلع على اى مؤلف من مؤلفات المنفلوطى السبعة ـ النظرات ، العبرات ، المختارات ، الفضيلة (بول وفرجينى) ، فى سبيل التاج ، الشاعر (سيرانودى برجراك) ، مجدولين (تحت ظلال الزيزفون) ـ يلاحظ رنة أسى وحزنا عميقا ينبعث من كتاباته . فالمنفلوطى حينما يكتب عن البؤس والبؤساء يكون أشبه بالطبيب البارع الذى يجرى جراحة خطيرة ولكنه واثق من النتيجة سلفا . وهو حينما يكتب عن البائسين فلا شك انه يعكس حالته النفسية ويغوص الى أعماقها ليصورها أصدق تصوير لأنه كان فى مقتبل حياته بائسا عضه الفقر بنابه وعرف الفاقة طويلا وبات على الطوى ليالى عديدة .. ولهذا عزم على ان يكرس حياته للدفاع عن هذه الشرذمة من الناس لاستخلاص حقوقهم السليبة ورد كيانهم ودفع الظلم عنهم ، ولكنه لم يكن يملك مالا فى ذلك الحين فعمد الى قلمه ليكون لسان حاله ، ولهذا نجده يقول فى مقدمة العبرات :

« الأشقياء فى الدنيا كثير وليس فى استطاعة بائس مثلى أن يمحو شيئا من بؤسهم وشقائهم ، فلا أقل من أن أسكب بين أيديهم هذه العبرات علهم يجدون فى بكائى عليهم تعزية وسلوى » . كما كتب فى الجزء الأول من النظرات : « ولقد كنت أرى هؤلاء الأشقياء فى فاتحة حياتى التعسة فكان يمر بخاطرى ما يمر بخاطر أمثالهم » .

ويطيب لى فى ذكرى مرور أربعين سنة على وفاة أديبنا الكبير « مصطفى لطفى المنفلوطى » ان أعرض هذا الكتاب الذى قام بتأليفه الأستاذ « محمد شلبى » وقد بذل فيه جهدا كبيرا وسرد فيه طرفا غير يسير من قصة حياة المنفلوطى وألقى الكثير من الأضواء على كتاباته وأدبه ، واتصل بكثير من الذين عاصروه وحصل منهم على الرسائل التى كانوا يتبادلونها معه أثناء اقامته بالقاهرة كما حصل على بعض آثار المنفلوطى الأدبية التى لم يسبق نشرها ومن بينها مقال له بعنوان « الوباء والتشدد فى الدين » ويقول فيه :

« لا تجعلوا دين الله بلاء على الناس عظيما وعبئا على العقول ثقيلا ، ولا تجعلوه سبب الفقر وهو السعادة العظمى وواسطة الهلاك والفناء وهو الحياة والنجاة ، واربئوا به أن تتخذوه متكأ لأغراضكم الخاصة فتهلكوا وتهلكوا الناس معكم واعرفوا له ما يليق به من الاجلال والاعظام فتسعدوا ويسعدوا » .

ومن المآثر الحميدة التى نذكرها للمؤلف تحقيقة للقصيدة التى هجا فيها الخديو والتى يقول فيها :

قدوم ولكن لا أقول سعيد
ومِلك وان طال المدى سيبيد
رحلت ووجه الناس بالبشر باسم
وعدت وحزن فى القلوب شديد

فقــد زعم البعض أنهــا ليست من تأليف المنفلوطى ، ولكن الأستاذ محمد شلبى استطاع أن يثبت أنها من تأليفه بعــد أن التقى بالسيد أبو النصر محمد حفيــد السيد على أبو النصر شاعر الخديو ــ وهو شــاهد عيان للواقعــة . وقد اعترف له الحفيد بأنها من نظم المنفلوطى وقد كانت هذه القصيدة سببا فى دخول المنفلوطى السجن وحكم عليه بسنة وطلب منه شــوقى أن يغير كلمات القصيدة فتصبح هكذا :

قدوم ولـكنى أقــول ســـعيد
وملك وان طــال المدى سيزيد

ولكن المنفلوطى رفض ودخل السجن ، وأمضى به ستة شهور الى أن استطاع الامام الشيخ محمد عبده استصدار عفو عنه « وهذا ان دل على شىء فانما يدل على أن المنفلوطى كان يحظى بشجاعة أدبية نادرة قل أن نجدها بين الأدباء والمفكرين ، كما أنه يدل على أنه كان شديد الاعتداد بنفسه متمسكا برأيه لا يحيد عنه قيد أنملة مهما لاقى فى سبيل ذلك الصعاب والهوان .

وهناك دلالة أخرى لا يصح أن نتجاهلها ، وهى أن المنفلوطى لم يكن أديبا ناثرا فحسب ولكنه أيضا كان شاعرا فذا . وقد سمعت من الأستاذ محمد شلبى مؤلف الكتاب أنه استطاع جمع ٢٥٠ قصيدة من تأليفه سيضمنها ديوانا له يصــدر قريبا .. ويرجع عهد المنفلوطى بالشعر الى سن السادسة عشرة حينما قال أول قصيدة له وكانت غزلية ومطلعها :

اردنا ســؤال الــدار عمن تحملوا
فلم ندر من فرط البكا كيف نسأل
وهاج لنا الذكرى معاهد أصبحت
تعيث صبا فيها وتعبث شمال

وقد زعم البعض أن المنفلوطى منشىء وليس كاتبا ، ولكن المؤلف ناقش هذه القضية وأثبت العكس ، ولا شك أن من يتعمق فى دراسة أدبه يرى الكثير من الأفكار الجديدة تنساب بين صفحات مؤلفاته . وقد امتازت بأنها تعالج شتى مناحى الحياة بأسلوب شاعرى فذ ولغة موسيقية هى وتغريد البلابل سواء . وانتشرت تلك المقالات بين قراء العربية من المحيط الى الخليج ، وهذا يدل على أن القراء وجــدوا فيها شيئا جديدا مثيرا .

ويعد المنفلوطى واحدا من الأدباء القلائل الذين بشروا بالاشتراكية ومهــدوا الأذهان لتقبل مبادئها وأفكارها الجديدة . وهو ان لم يكن قد ذكرها صراحة فى كتاباته لأنهــا لم تكن بطبيعة الحال معروفة فى عهده ، ولكنه تحدث عنها بصورة رمزية وطالب بها دون أن يدرى ماهيتها فقد كان يكتب ويدون ما يحس به فى أعماقه . كان يحس بحــاجة الفقــير وشــقاء البائس وظلم الفنى واضطهاده لعامة الشعب فكان يدون على القرطاس هذه الانفعالات .

ويورد المؤلف الكثير من الأمثلة والحوادث التى تدل على اشتراكية المنفلوطى فى حيــاته وفى أدبه .. ومن أبرز الأمثــلة التى قدمها قصة « البعث » وهى قصة رمزية خيالية عبارة عن حوار بين سيد عظيم وفلاح أجير ، ويتبين لنا منها أن الفــلاح لا يهمه فى الدنيا شىء سوى سعادة سيده ، وحتى اذا أراد السيد أن يضربه بالكرباج فان الفــلاح يكون فى غاية السعادة لتلبية نداء سيده . وقد كتب المنفلوطى هذه القصة فى سنة ١٩١١ ونشرت بالعام التالى بالجزء الثانى من النظرات .. ويعقب المؤلف (ص ٨٧) على هذه القصة قائلا :

« وهكذا نرى أن المنفلوطى قد ثار على هذه الأوضاع الفاسدة منذ عام ١٩١١ وبذلك يكون قد مهــد للثورة الاجتماعية التى قامت منذ عام ١٩٥٢ على يد بطل المعجزات الرئيس جمــال عبد الناصر الذى صادر أملاك أسرة محمد على وأصدر قانون تحديد الملكية وذلك ليقضى على طبقة الاقطاعيين الذين حكموا البلاد فأكثروا فيها الفساد واستغلوا الفلاحين أسوأ استغلال » .

فالمنفلوطى فى رأى المؤلف هــو واضع أحد الأسس التى قامت عليها ثورتنا الاجتماعية وهو « القضاء على الاقطاع وسيطرة رأس المال » .

ولا شــك اننا كلما تعمقنا فى دراســة ادب المنفلوطى نجد الكثير من الأدلة والبراهين التى تدل على تفكيره الاشتراكى ودعوته الى الكثير من المبادىء والنظم التى يعمل بها الآن بعد قيام ثورتنا المجيدة .

سعد زغلول سراج

الأسفار المقدسة

فى الأديان السابقة للإسلام

تأليف

الدكتور على عبد الواحد وافى

الناشر

مكتبة نهضة مصر

١٨٨ ص

١٤×٢٠ سم

الثمن

٢٥ قرشا

الكتابة فى موضوع الأديان المقارنة أمر ليس بالهين ، فهو يستلزم ثقافة واسعة وفهما عميقا يمتد حتى يصل الى الجذور الأولى للعقيدة الدينية وما نشأ عنها من أصول وفروع ، مع ربط كل ذلك بالبيئة التى نشأ فيها الدين والمجتمع الانسانى الذى انتشر الدين بين ظهرانيه، وما صاحب الدين من تفاسير فى الفترة الأولى لنشأته أى ابان الفترة التى صاحبت حرارة الدعوة وما تطورت اليه هذه التفاسير بعد أن هدأت الحرارة ونظر الى الأمور نظرة فيها شىء من التفلسف أو طرأت ظروف اجتماعية دعت الى اعادة النظر فيه .

وكتاب الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة للاسلام موضوعه علم الأديان المقارنة ، حاول مؤلفه أستاذنا العلامة الدكتور على عبد الواحد وافى أن يعطى القارىء فكرة واضحة عن الأسفار المقدسة لأربع ديانات من أهم الديانات السابقة للاسلام وهى : اليهودية والنصرانية والزرادشتية والبرهمية . وقد دعته طبيعة البحث الى دراسة هذه الديانات نفسها وما تعتمد عليه من مقومات فى عقائدها وشرائعها وما اجتازته من مراحل ، وهلم جرا ؛ فجاء عرضه مبسطا واضحا لا يخلو من العمق .

قدم المؤلف لكتابه بمقدمة قصيرة ذكر فيها أن أسفار الديانة اليهودية هى التى يطلق عليها اسم « العهد القديم » ، ومن أهمها كتب موسى أو الأسفار الخمسة أو التوراة . وأسفار الديانة النصرانية هى التى تسمى باسم « العهد الجديد » ومن أهمها مجموعة الأناجيل الأربعة المعتمدة عند المسيحيين . ثم أردف قائلا ان كلمة « العهد » هنا ترادف معنى الميثاق ، أى أن كلتا الطائفتين من الأسفار تمثل ميثاقا أخذه الله على الناس ، أولاهما ميثاق قديم يرجع الى عصر موسى ، والأخرى ميثاق جديد بدأ بظهور عيسى . وما يطلق عليه اسم « الكتاب المقدس » يجمع أسفار العهدين معا . أما أسفار الديانة الزرادشتية الفارسية فيطلق عليها اسم « الأبستاق » أى « الأڤستا Aoesta » ومعناها الأصل أو الأساس وأسفار الديانة البرهمية الهندية يطلق عليها اسم « الڤيدا Veda » ومعناها المعرفة أو العلم . ولما كانت بحوث أحبار اليهود وربانييهم وفقهائهم قد تكون منها مجموعة أسفار « التلمود » أى التعاليم ، وهى التى نالت عند فرق اليهود منزلة لا تقل كثيرا عن « العهد القديم » ؛ ولما كانت «قوانين مانو» قد استمدت من أسفار « الڤيدا » ، وفصلتها شرحا وبيانا ، وأنزلها البرهميون منزلة التقديس ؛ فان المؤلف قد عرض لهذه المجموعات الست من الأسفار ، وهى أسفار « العهد القديم » وأسفار « التلمود » فى الديانة اليهودية ، وأسفار « العهد الجديد » فى الديانة المسيحية ، وأسفار « الأبستاق » فى الديانة الزرادشتية ، وأسفار « الڤيدا » « وقوانين مانو » فى الديانة البرهمية .

وقد قسم المؤلف كتابه أربعة فصول : درس فى الفصل الأول أسفار الديانة اليهودية ، وفى الفصل الثانى أسفار الديانة المسيحية ، وفى الثالث أسفار الديانة الزرادشتية ، وفى الرابع أسفار الديانة البرهمية .

ويبدأ الفصل الأول بفقرتين تمهيديتين : أحداهما تعطى القارىء فكرة مجملة عن تاريخ بنى

اسرائيل قبل هجرتهم الى مصر ، وفى أثناء اقامتهم فيها ، وبعد خروجهم منها ، الى أن استقر بهم المقام فى بلاد كنعان ، وما اكتنفهم من ظروف اجتماعية وسياسية واقتصادية فى مختلف هذه المراحل . وثانيتهما تقدم فكرة مجملة فى اللغات العبرية والآرامية واليونانية وفروعها وخصائصها وما اجتازته من مراحل ، وهى اللغات التى ألفت بها وترجمت اليها أسفار العهد القديم والتلمود .

ثم شرع بعد ذلك فى الكلام على أسفار العهد القديم فخصص لها خمس فقرات : ألقى فى أولاها نظرة مجملة على جميع أسفار العهد القديم وخصص ثانيتها لأهم مجموعة منها وهى أسفار موسى أو الأسفار الخمسة أو التوراة ، وعرض فى الفقرة الثالثة لبقية أسفار العهد القديم ، وتكلم فى الرابعة على اللغات التى ألفت بها هذه الأسفار والتى ترجمت اليها ، ودرس فى الفقرة الأخيرة ما يسمى بالأسفار الخفية وهى أسفار قديمة لم يدخلها اليهود فى أسفار هذا العهد اما لأنها غير مقدسة ولا معتمدة فى نظرهم واما لأن أحبارهم قد رأوا وجوب اخفائها فى الهيكل وأنه لا يجوز أن يقف عليها الجمهور على الرغم من اعترافهم بصحتها .

وبعد أن فرغ المؤلف من الكلام على أسفار العهد القديم اخذ فى الكلام على أسفار التلمود فخصص لها فقرتين : احداهما لبيان هذه الأسفار وعددها وشروحها ، والأخرى لبيان اللغات التى ألفت بها والتى ترجمت اليها .

ثم ختم الفصل بأربع فقرات هامة ، عرض فيها للعقيدة فى أسفار اليهود وتطورها وللشريعة اليهودية فى هذه الأسفار وقيامها على التفرقة العنصرية وعدم وحدتها واضطرابها ، وللقصص فى هذه الأسفار والفرق بينه وبين قصص القرآن الكريم ، وللفرق التى انشعب اليها اليهود منذ نشأتهم الى الوقت الحاضر .

ومن اهم ما يشتمل عليه هذا الفصل أربعة تحقيقات هامة :

(أحدها) ما ذكره المؤلف بصدد الأسفار الخمسة أو أسفار موسى التى يعتقد اليهود أنها التوراة التى أنزلت على نبيهم . فقد بين أن هذه الأسفار ليست هى التوراة التى يحدثنا عنها القرآن ، وأنها لم تؤلف الا بعد موسى بأمد قصير وأنها من صنع اليهود أنفسهم وان كل سفر من أسفارها قد ألف فى عصر غير العصر الذى ألف فيه الأسفار الأخرى وأنها تعكس تشريعات وأوضاعا اجتماعية مختلفة متضاربة . وأيد رأيه هذا بأدلة قوية مستمدة من بحوث لغوية وتاريخية واجتماعية . وعلى أساس هذه البحوث نفسها وضع المؤلف سفر التثنية قبل سفرى اللاويين والعدد ، مخالفا فى ذلك الترتيب التقليدى لليهود ، لأنه قد برهن أن تأليف سفر التثنية كان فى عصر سابق لتأليف السفرين الآخرين .

(وثانيها) ما ذكره المؤلف عن سمات الشريعة التى تتضمنها هذه الأسفار وقيامها على التفرقة العنصرية بين الأجناس ، وعدم وحدتها وتضارب أحكامها بعضها مع بعض واضطراب الحقائق فى أذهان محرريها . وفى هذا كله دليل آخر على أن أسفارهم هذه من صنع أيديهم ، وان كل سفر منها يعكس التقاليد والنظم التى كانوا يسيرون عليها فى العصر الذى ألف فيه ، وعلى مبلغ الخلاف بين توراتهم المزعومة والتوراة الصحيحة التى أنزلها الله على موسى . فان كتابا من عند الله لا تتضارب أحكامه بعضها مع بعض ، وان شريعة من عند الله لا تقر التفرقة بين الآدميين .

(وثالثها) ان فكرة الألوهية كانت قد انتكست فى عصر تدوينهم لهذه الأسفار فتصوروا الله فى صور مجسمة ، فوصفوه بكثير من صفات النقص والضعف والكذب والغفلة والجهل ، وظهر تصورهم هذا فى كثير من قصص هذه الأسفار . وضرب المؤلف عدة أمثلة مستمدة من نصوص هذه الأسفار نفسها .

(ورابعها) الموقف الغريب الذى تقفه هذه الأسفار حيال أنبياء بنى اسرائيل وملوكهم وزعمائهم ، اذ تلصق بهم أعمالا قبيحة تتنافى مع وضعهم الدينى والاجتماعى ، بل تتعارض مع الخلق الكريم فى ذاته ، ولا يتصور صدورها الا من سفلة الناس ، وضرب المؤلف عدة أمثلة مستمدة من أسفارهم نفسها تثبت هذه الحقيقة . بل لقد نسب فى هذه الأسفار لهرون نفسه عليه

السلام انه قد يسر لبنى اسرائيل سبيل الشرك ودفعهم الى الوثنية وعبادة الأصنام ، فصنع لهم بيديه فى سينا عجلا من ذهب ليعبدوه من دون الله (اصحاح ٣٢ من سفر الخروج) .

اما الفصل الثانى فقد عرض فيه المؤلف لأسفار الديانة المسيحية ، ومهد له بكلمة عن الحواريين أو الرسل الاثنى عشر الذين اختارهم المسيح من أكثر أتباعه ملازمة له ليبلغوا رسالته الى الخلق ؛ وبكلمة عن التلاميذ السبعين الذين كلفهم المسيح بالتبشير فى قرى الجليل وعن « التابعين » الذين لم يصاحبوا المسيح نفسه ولكن صاحبوا بعض رسله أو بعض تلاميذه وكان لهم اثر فى التبشير بالمسيحية ، وقد سماهم المؤلف « التابعين » جريا على ما اصطلح عليه فى الاسلام من اطلاق كلمة «تابع» على من لم يصاحب محمدا صلى الله عليه وسلم ولكن أخذ عن بعض صحابته . وقد ذكر المؤلف ترجمة قصيرة لجميع من تنسب اليهم أسفار فى العهد الجديد من الرسل والتلاميذ والأتباع ، فترجم لبطرس ويوحنا ومتى ويعقوب الصغير ابن حلفى ويهوذا وبولس من الرسل ، وبرنابا ومرقص من التلاميذ ، ولوقا من التابعين .

ثم تكلم المؤلف على أسفار العهد الجديد ذاكرا أن المسيحيين اعتمدوا فى القرن الخامس الميلادى سبعة وعشرين سفرا ، مقررين أنها هى وحدها الأسفار المقدسة أى الموحى بها ، أى موحى بها بمعانيها لا بألفاظها ، وأطلقوا عليها اسم « العهد الجديد » . وأرجع هذه الأسفار الى ثلاث مجموعات وسفرين . أما المجموعات فهى : مجموعة الأناجيل وعددها أربعة ، ومجموعة رسائل بولس وعددها أربع عشرة ، ومجموعة الرسائل الكاثوليكية وعددها سبع . وأما السفران فهما : سفر « أعمال الرسل » للوقا وسفر « رؤيا يوحنا » أو « الأبوكاليبس » ليوحنا وقد فصل المؤلف الحديث عن هذه الأسفار ذاكر أن الأناجيل المعتمدة هى أهم مجموعات العهد الجديد وأن اقدمها هو انجيل متى الذى كتب سنة ٦٠ بعد الميلاد باللهجة الآرامية الفلسطينية وأن الأناجيل الأربعة وان اتفقت فى الجوهر فانها تختلف فى كثير من التفاصيل ، وهى فى مجموعها تختلف عما جاء فى القرآن الكريم عن انجيل عيسى . فالقرآن الكريم يقرر أن انجيل عيسى كتاب سماوى منزل عليه ، ولكن هذه الأناجيل أسفار كتبها أناس من البشر أقدمها بعد رفع المسيح بنحو ثلاثين سنة وأحدثها بعد رفعه بنحو خمس وخمسين سنة .
ثم أشار المؤلف الى أناجيل أخرى غير معتمدة استبعدتها الكنيسة وحكمت ببطلانها فى أواخر القرن الثانى واوائل القرن الثالث الميلادى . ثم بسط القول فى موضوع تطور العقيدة المسيحية واستقرارها أخيرا على التثليث ، وذكر أن هذا الموضوع قد مر خلال مرحلتين : مرحلة تبدأ ببعثة المسيح حتى مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م ، وأخرى من مجمع نيقية الى الوقت الحاضر ولم يفت المؤلف الاشارة الى بعض الخلافات الفرعية بين طوائف المسيحيين فى كثير من تفاصيل العقيدة والشريعة والطقوس ، مع الاشارة الى أسباب هذا الخلاف والى توزيع فرق المسيحيين فى العصر الحاضر .

وأما الفصل الثالث فقد خصه المؤلف بالكلام على أسفار الديانة الزرادشتية ، وبدأه بكلمة عن شخصية زرادشت . ثم تناول الكلام على أسفار الديانة الزرادشتية التى يطلق عليها اسم « الأبستاق » والتى أوحى بها ــ حسبما يرون ــ الاله « أهورامزدا » وتحدث عن شروح الأبستاق وتفسيرها وشرح الشروح ، واللغات التى كتبت بها . ثم تحدث فى فقرتين تاليتين عن العقيدة وعن العبادات والشرائع والأخلاق فى أسفار الزرادشتيين مبينا تطورها وانتقالها من ديانة توحيد الى ديانة مثنوية تقرر وجود الهين : اله للخير أهورامزدا واله للشر (أهريمان) وانتقالها من تقديس ألنار بوصفها رمزا للاله الى عبادة النار نفسها بوصفها الها ، فصارت بذلك ديانة مجوسية . وعرض المؤلف كذلك لطائفة من معتقداتها الأخرى فتكلم عن موقفها من البعث والنشور ، فذكر أن عقيدتها فى البعث والنشور لا تكاد تختلف عما يقول به الاسلام . وعرض كذلك لنظمها الخلقية فبين أنها تحث على كثير من الفضائل وتنهى عن كثير مما ينهى عنه من الرذائل .

وشخصية زرادشت كشخصية سقراط شيخ فلاسفة اليونان ، حام الشك حول وجودها فأنكرتها آراء وأثبتتها آراء وقد أحسن المؤلف صنعا عندما عرض لهذا الموضوع بشيء من التفصيل وتأييده للرأى القائل بحقيقة شخصية زرادشت وانها غير شخصية ابراهيم الخليل ، فهو الراى الذى ينتصر له العلماء المحدثون امثال دارمستيتير Darmesteter وهوارت Huart من الفرنسيين ويست West من الانجليز وجاكسون Jackson من الأمريكيين .

ويختص المؤلف الفصل الرابع والأخير بالحديث عن أسفار الديانة البرهمية التى تنسب الى الاله براهما وتعد من اقدم الديانات فى الأمم الآرية ، اذ يرجع تاريخها الى القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، ويعتنقها الآن معظم سكان الهند وبعض سكان الباكستان . وقد قسم المؤلف هذا الفصل الى ست فقرات : تحدث فى الفقرة الأولى عن أسفار الفيدا ، فقال انها كتبت فى الأصل باللغة السنسكريتية ، وقسمها الى أربع مجموعات تشتمل كل مجموعة منها على قسمين قسم للأدعية والصلوات ويسمى منترا Mantras وقسم للتعاليم المتعلقة بالعبادات والشرائع وما الى ذلك ويسمى براهمانا Brahmanas وتحدث فى الفقرة الثانية عن « قوانين مانو » التى هى تفصيل لعقائد الدين البرهمى وعباداته ومعاملاته ونظمه الاجتماعية . وتكلم فى الثالثة على العقيدة فى أسفار الدين البرهمى مبينا تطورها ، وأنها قامت فى الأصل على دعائم ثلاث : وحدانية الله ووحدة الوجود ؛ تناسخ الكائنات وتجوال الأرواح ؛ رجوع الأرواح الى مصدرها الأول وهو الله . ثم اعتراها التحريف وحل التثليث محل التوحيد . وفى الفقرة الرابعة تكلم على العبادات فى أسفار الدين البرهمى ، فذكر أن غاية العبادة واحدة وهى الفناء فى الله والاندماج فى الكائن الأسمى ، وهذا هو سر اكثارهم للصوم كى يضعفوا مطالب الجسم الحيوانية . أما عن الشرائع ، وهى موضوع الفقرة الخامسة ، فقد قامت على التفرقة العنصرية وتقسيم المجتمع الى طبقات ، اعلاها طبقة البرهمنيين التى خلقها براهما من فمه وأدناها طبقة المنبوذين التى خلقها من قدمه . أما الفقرة السادسة فقد خصها المؤلف بالحديث عن الأخلاق فى أسفار الدين البرهمى ، فذكر أن شريعتهم تدعو الى الزواج بالرغم من أن العزوبة واجبة على كل من يصل الى منزلة القديسين ورجال الدين ، وذكر أيضا أن الديانة البرهمية تدعو الى كثير من الفضائل التى يدعو اليها الاسلام وتنهى عن كثير مما ينهى عنه .

هذا ، ويعد بحث المؤلف فى قوانين « مانو » من أهم بحوثه فى هذا الكتاب . فهذه القوانين على ما نعلم لم يعرض لها أحد فى اللغة العربية من قبل المؤلف . وقد رجع المؤلف فى صددها الى طائفة كبيرة من أمهات المراجع فأسدى بذلك الى المكتبة العربية بحثا أصيلا مبتكرا لم يقدم اليها من قبل. وعرض فى هذا البحث لكثير من نظم الزواج الغريبة التى تضمنتها قوانين مانو كنظام زواج الجبابرة عند طبقة الكشتريين أو رجال الحرب (الزواج بخطف الزوجة ومقاومة أهلها) .

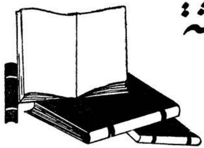
ومما يذكر له بالحمد كذلك تحقيقاته فى صدد تأثر التصوف الاسلامى بكثير من عقائد الدين البرهمى .

وفى هذا الفصل كذلك كنا نود لو تكلم أستاذنا مثلا عن العوامل الاجتماعية التى أدت الى انقراض البرهمية من كثير من المجتمعات الهندية ودخول ديانات أخرى جديدة كالچينية والبوذية والاسلام .

سعيد زايد

الأطراف الثلاثة

للكتاب العربي ومشكلاته



تحقيق يكتبه جمال بدران

بلغ الكتاب العربى من الأهمية فى عهدنا الثورى درجة كبيرة .. تكاتفت عندها الجهود المخلصة الواعية لتدعيمه ، وبحث مشاكله على أسس علمية وقد اقتضت طبيعة البحث أن يقسم الى عناصر تناقش فى جلسات متتالية .. وكان رائد الباحثين فى جلسات هذا المؤتمر الموضوعية مع رحابة الصدر .. كى يتسنى بحث كل عنصر فى هدوء يؤدى الى حل سليم ... واقتضت طبيعة التسلسل المنطقى للبحوث أن تبدأ بالنواحى التحريرية للكتاب العربى المؤلف تكلم رئيس هذه الجلسة الدكتور السعيد مصطفى السعيد عن النواحى التشريعية وحماية حقوق المؤلف .. فقال ان المؤلف يمثل الجانب الضعيف فى هذه المشكلة. وان الناشر هو الأقوى باعتباره مالك المال .

ولم يترك الناشر السيد محمد المعلم هذا الحكم دون أن يعلق عليه نافيا عموميته ومضيفا ان العكس يحدث أيضا .. ثم تساءل عن حق المؤلف فى كتابه ان كان حقا أبديا أم مرتبطا بمدة محددة يسقط بعدها حقه فى الطبعات التالية من كتابه .. خاصة وأن دور الناشر فى خدمة الكتاب يحتاج الى شعوره بالاطمئنان امام حقوق المؤلف.

لكن هذا الاعتراض كان فى حقيقته صيحة من الناشرين عامة .. عبرت عن طبيعة فهمهم لدورهم فى اخراج الكتاب المخطوط الى حيز المطبوع المقروء على المدى الواسع .. اذ تتلخص وجهة نظرهم فى أن الناشر لولا مجهوداته لما كان لظهور الكتاب نصيب .. ولولا اقتناعه بهذا الكتاب دون غيره لما غامر بالانفاق عليه . وعنصر الاقتناع هنا يحتوى على أوجه عدة .. هى . الموضوع ، اسم المؤلف ، حجم الكتاب ، طريقة اخراجه طبقا للاتفاق المعقود بينه وبين المؤلف عن الغلاف ونوع الورق والحروف وعدد الصور ان كانت موجودة ، ثم ما ينتظر لهذا الكتاب من رواج .. ومن ثم تتحدد النسخ المطبوعة من هذا الكتاب .. وعلى هذا فانه يجب أن يخضع التعاقد بين الطرفين لهذه الاعتبارات .. فلا يتشدد المؤلف فى ثمن ما ألفه حتى يخف الثقل على الناشر .

لكن التعاقد من الوجهة التشريعية تستحيل ابديته .. ومن هنا لايستطيع الناشر أن يتمسك بحقه فى طبع الكتاب الواحد عدة طبعات .. برغم كل ما بذله فى الطبعة الأولى من مجهودات لنشره والدعاية له وتسويقه .. لهذا وجدنا الأستاذ ابراهيم زكى خورشيد يرشد الناشرين الى مادة فى قانون ١٩٥٤ .. تطمئنهم .. فتنص على أنه اذا تساوت العروض أمام المؤلف فى الطبعة الثانية لكتابه .. يكون ناشر الطبعة الأولى هو صاحب الحق فى اعادة طبعها خاصة وأن المادة رقم ٣٧ من هذا القانون ـ كما يقول الدكتور عبد الرحمن بدوى ـ لم تحم أحدا من الطرفين على حساب الآخر فى تحديد مدة ملكية المؤلف لكتابه فى التعاقد . ولهذا فان التوقيت ـ كما يقول الدكتور السعيد مصطفى ـ هو الأساس لتعاقد الطرفين .

ثم تحول النقاش الى تحديد نسبة الربح بين الناشر والمؤلف .. فعادت مشكلة الصلة بين الطرفين الى الظهور .. فعندما تصل الأمور الى نقطة تقسيم الأنصبه ..تتشابك المصالح ، وتتعقد

طبيعة الروابط بين الطرفين .. وتصل الى حد التساؤل عمن يكون صاحب الفضل وصاحب الحق فى فرض الشروط .. فاذا ما فهم الموضوع على هذا الأساس .. ضاع حق القارىء بينهما ... خصوصا وأنه لم يكن ممثلا فى حلبة هذا النقاش .

حتى ولو دافع أحدهما عن القارىء .. فانه يحق لنا أن نتساءل عما يكون الأقرب أو الأكثر أخلاصا له .. ان الوضع بهذا الشكل الذى سار عليه النقاش .. يؤدى بنا الى هذا التســاؤل الحتمى ولكى نصل الى جواب له .. لا بد وان نفرق بين هذه الأطراف الثلاثــة .. فالقــارىء كعميل لا يشترى الكتاب الا من الموزع .. والموزع هنا هو اما أن يكون الناشر نفســه أو صاحب المكتبة أو وكيل توزيـع يتعامل مع الناشر .. لهذا فان طبيعة الصلة المباشرة تتمثل فى عملية الشراء . التى ترتبط كل الارتباط بطريقة التسويق . لكننى بوصفى قارئا .. أريد أن أعرف .. ما الذى يدعونى للذهاب الى مكتبة لشراء كتاب معين دون غيره .. هل هو موضوع الكتاب أم اسم المؤلف الذى كتب هذا الكتاب .. والموضوع هنا يتوقف على طبيعة اهتماماتى او تخصصى . ومن ثم فان دور الناشر يتمثل فى كيفية اجتــذابه للقارىء المتخصص الى كتاب آخر فى غير تخصصه أو اهتمامه .

ومن هنا نقول ان الكتاب العلمى أو الفنى فى الامكان أن نحصى عــدد المهتمين به على ضــوء احصائيات عنهم واحتمالات زيادتهم ، ويصبح فى الامكان وضع أسس لما يجب أن يكون عليــه الاتفاق بين المؤلف والناشر فى مثل هذا النوع . بمعنى أنه اذا زاد توزيع الكتاب عن القدرالمرسوم له خضع لعوامل أخرى .. من أهمهــا مجهــود الناشر فى هذه الزيادة ..ويكون له فيها النصيب الأوفى من الأرباح . أما ان كان الكتاب متوقفــا على اسم المؤلف باعتبار أن موضــوع الكتــاب قد تناولته أقلام كتاب عديدين فى كتب أخرى.. فاولى بالناشر الذى اعترف بأهمية هذا الاسم أن يعترف بالقدر الأكبر من الربح أو الثمن لهــذا المؤلف دون غيره ..

وهنا نصل الى نقطة حســاسة بعض الشىء – كما يقول الناشرون – ان مثل هذا الكتــاب ليس بلازم أن تتحقق أرقام توزيعه المنتظرة .. فقد يسبب خسارة للناشر .. ولا أظننى متعنتا ان قلت .. ان عليه أن يتحمل هذه التضحيــة لأنه لم يستغل امكانياته فى اجتذاب القراء ، ولم يضع فى اعتباره هذا الاحتمال أثناء الاتفاق . واسم المؤلف هنا .. يصح أن نضيف اليه الموضــــوع – موضوع الكتاب – اذ لو كان موضوعا بعيــدا عن التخصص أو الاهتمامات .. كمـــا لو كان قصة أو أدبا مثلا .. فان مجال المســاومة بين المؤلف والناشر يكون أوسع لأنه يخضع لعوامل أخرى غير خاضعة للاحصاء أو التحديد الكمى.. مثل أذواق القراء ، والفترة الزمنية أو المناسبة التى يخرج فيها الكتاب .. لذلك وجدنا الدكتور سيد أبو النجا يقول ان الكتاب كحقيقة واقعــة لا ننظر اليه الا باعتباره رواجا وقيمة .. وعلى ضوء الصلة بينهما نبنى اتفاقاتنا .. فالجهــد وحده الذى بذله المؤلف لا يصح أن يكون مقياسا للناشر ، وكذلك مقدار المباع من الكتاب لا يجب أن يكون وحده مقياسا له .

لا بد اذن من البحث عن أساس عادل يوضع بمقتضاه أو على ضوئه كل اتفاق بين الطرفين .

ومن هنا تطرق النقاش الى المؤلف الذى يجمــع بين مهنتى التأليف والنشر . فطالب الأســتاذ محمود عبد المنعم مراد أن يمنع هــذا تماما .. فلكل دوره .. وطالب بالاسراع فى تكوين اتحــاد للناشرين لحمايتهم من هذا الازدواج ، ولا ادرى لماذا ؟ .. أهو الخوف من دخول منافس ، أم هو العطف على مهنة التأليف التى تخسر مؤلفا انقلب الى ناشر !! لا أدرى .. انما المهم فى الموضوع أن هذا الأمر قد أستبعد لتعارضه مع حرية المؤلف خاصة وانها مسألة لم تبلغ من الخطورة درجــة تحول كل المؤلفين الى ناشرين .. ولهذا اقتضى الأمر الانتقال بعدئذ الى تصنيف الكتب المؤلفة.. مثــل الكتب العلميــــة وكتب التراث والكتب المدرسية والجامعية وكتب الأطفــــال والكتب القصصية . أما الكتب العلميــــة وكتب التراث فلا عقبة امامهما الا الا نفاق عليها وصعوبة الكتابة فيها .. وأصبح من الضرورى توجيه توصيــة الى وزارتى البحث العلمى والثقافة والارشـــاد القومى للانفــــاق على هذين النوعين وتشجيــع

الكتابة فيهما ، وتيسير استيراد الكتب العلمية من الخارج .

وفيما يخص الكتاب المدرسى .. فان وزارة التربية والتعليم قد أخذت على عاتقها نشر هذه الكتب متحملة تكاليفها كافة .. ولا يحتاج الأمر الا الى مطالبتها بتوجيه اهتمامها الى الكتب المصدرة الى الدول العربية لاخراجها فى شكل أنيق وطباعة جيدة ، مع تحملها لما ينجم عن سعرها القليل من نفقات . ثم ثار النقاش حول الكتاب الجامعى والغبن الواقع على الناشر من المؤلف فى أى اتفاق خاص به .. بحجة ضمان الأستاذ المؤلف لطلبته كقوة شرائية ، وما يضطر اليه الناشر من رفع سعر النسخة الواحدة بدرجة تثقل كاهل الطالب . والموقف هنا موقف انسانى قبل أى شىء آخر .. فما هو الكتاب الجامعى ؟ .. هل هو الكتاب العلمى أم هو الكتاب المضمون التوزيع ؟ .. ان هذا التعريف الأخير حقيقة واقعة .. بل انه بجانب ضمان توزيعه سريع الحركة – أى أنه يوزع فى نفس العام .. فهل يقتضى هذا أن نغالى فى سعره .. باعتباره سلعة تجارية تخضع لعوامل العرض والطلب ؟ أقولها من القلب – كطالب جامعى سابق عانى من شراء الكتب الكثير – ان الكتاب الجامعى علمى .. علمى مائة فى المائة .. وأحرى بالأجهزة الحكومية أن تحميه من تلك النظرة فتنفق عليه وتشجع نشره بعيدا عن الاستغلال .. فلا يباع بأكثر من مثلين ونصف من تكاليفه.

الكتاب المترجم .. كان هو موضوع المناقشة فى الجلسة الثانية .. تساءل الأستاذ ابراهيم زكى خورشيد رئيس الجلسة عن المدة التى يسمح بعدها لكتاب أجنبى أن يترجم الى اللغة العربية .. وطال النقاش حول هذه النقطة وما جاءت به معاهدة برن من بنود لتنظيم عملية الترجمة .. لكن الأستاذ فؤاد أندراوس استند فى تحديده للمدة بخمس سنوات الى العرف السائد دون تقيد بهذه المعاهدة التى لم ولن نشترك فيها لصالحنا . لكن الدكتور سهيل ادريس انبرى ليتحدث باسم الناشرين اللبنانيين .. فطالب باتفاق الجنتلمان بين الدول العربية كيلا يترجم كتاب عدة مرات فى هذه الدول ، فيطغى على الترجمة الأولى التى اشترى الناشر الأول حق ترجمتها .. الا أن هذا الطلب لاقى معارضة من الأستاذ خيرى حماد والدكتور عبد الرحمن بدوى .. بحجة أن منع تكرار الترجمة يتنافى وحرية الانسان فى ترجمة ما يشاء ، وأن كثرة الترجمات لكتاب واحد تفيده وتدعم ترجمته .. فأراد رئيس اللجنة أن يوفق بين هذه الآراء باقتراحه وضع تاريخ لصدور كل ترجمة على الكتاب .. بمعنى أن يكون محددا من البداية الزمن الذى لا يصح لمترجم أن يترجم هذا الكتاب نفسه خلال هذه الفترة المحددة .. وأضاف الدكتور سهيل الى ذلك أن تؤلف لجنة فنية للفصل فى تقييم ترجمتين او ثلاث لكتاب واحد حتى تنظم هذه الأمور .

وفى الحقيقة ان هذا الاقتراح أجدى بالجامعة العربية أن تحتضنه دون غيرها .. ثم تناول النقاش اثر الترجمة على حركة التأليف .. وهو أثر كبير جدا – لا شك فيه – لأننا نحتاج فى مرحلتنا الناهضة هذه الى الاستعانة بنتاج الفكر الأجنبى .. ولا وسيلة لهذا الا بالترجمة .. الا أن التمادى فى هذا السبيل لا يؤمن جانبه .. اذ أن الترجمة اذا زادت عن الحد المعقول لعادت بالضرر الوبيل على حركة التأليف .. فتشل القدرة على الابتكار والابداع .. ولهذا فان الأمر يقتضى على الدوام موازنة بين النشاطين ومتابعة لعيون الانتاج الأجنبى ، ثم الحث على ترجمته حتى نميز بين الغث من الثمين ، وحتى نفسح الطريق أمام حركة التأليف كى تزدهر . لذلك كان هذا التساؤل قد وقف حائلا دون اتمام النقاش فى الجلسة ، ودون تحقيق التوازن فى الواقع .. فالمتابعة تسير فى طريقين كلاهما مسدود .. اذ لابد أولا من رؤية الكتاب .. الحصول عليه .. وهذا يخضع لعوامل الاستيراد ، ولا بد ثانيا من فحص هذا الكتاب .. وهنا يأتى دور أساتذة الجامعات المتخصصين .. هل يتابعون حركة تأليف الكتب المعاصرة فى الخارج ، ويطلب كل واحد منهم نسخة من كتاب حديث ينتظر منه فائدة فى تخصصه ، أم يكتفى بما حصله منذ زمن بعيد . والسبب فى ذكر أساتذة الجامعات أو الأفراد القلائل المتخصصين هو ما يبرز أمام

الاستيراد من مشاكل .. فالتسهيلات ميسرة فى وجه الكتاب الواحد اذا ما طلب من الخارج للاطلاع عليه ، اما استيراد كميات عديدة منها فهى من الصعوبة بمكان .. فان توصلنا الى تهيئة هذا الأمر .. سهل الشق الآخر من المشكلة وهو فحصه ثم ترجمته .. خصوصا اذا ما أسندنا الكتاب الى المختص فى فنه أو علمه .. ولهذا ينتظر للترجمة أن تكون دقيقة وأمينة من مثل هؤلاء .

طباعة الكتاب وطريقة اخراجه .. وقد رأس الأستاذ يوسف بهجت الجلسة المخصصة لهذا الموضوع .. ولم يمهله الناشرون حتى يفتتح الكلام فى الموضوع .. اذ سمعت كما لو كان نشيدا حماسيا يردد مقطعا واحدا هو .. المجاعة فى الطباعة .. ينبعث من قلوبهم لا من حناجرهم .. فآلات الطباعة لا تساير حركتى التأليف والترجمة ولا تكفيهما .. ستون فى المائة من الآلات الموجودة تحتاج الى التقاعد ، والنسبة الباقية منها تحتاج الى صيانة .. الأيدى العاملة المدربة قليلة ولا توجد أجيال تالية لها .. ان المشكلة اذن تتركز فى الآلة والعامل .. فالآلة الحديثة للطباعة شحيحة فى بلادنا وتحتاج الى الاستزادة منها .. فاذا ما جئنا بها وقفت أمامنا عقبة اليد المدربة المؤهلة لادارتها وصيانتها .. فكيف السبيل ؟ .. السبيل الى ذلك متشعب الحلول .. منها انشاء معهد عال لتعليم فن الطباعة بجميع مراحله والتخصص فيه ، ومنها افراد مجلة لفن الطباعة تعمل على نشر كل جديد فيه ، وآخر ما وصل اليه هذا الفن فى البلاد المتقدمة ، وتعريب مصطلحاتها الافرنجية ، أو افراد باب لهذا الفن بمجلة الكتاب العربى ان لم يتسن انشاء مجلة قائمة بذاتها .. ولكن هل هذه هى مشكلات الطباعة فقط ؟ .. كلا .. ان دور المؤلف مرتبط تمام الارتباط بهذه الأمور .. لا بد ان يفهم المؤلف طبيعتها ، ويتكاتف مع الناشر فى تيسير عقباتها .. مثل تصميم الكتاب من ورق وقطع وأشكال اطراف ومقاساتها ومواظبته على تصحيح الملازم المجموعة لكتابه أولا بأول . وفى كلمة واحدة .. لا بد أن يتكاتف الطرفان فى تحديد وتنفيذ مواصفات هذا الكتاب .

الكتاب وتحديد ثمنه .. بدأ الدكتور محمد كامل الحارونى رئيس هذه الجلسة .. بالكلام عن كيفية تحديد الثمن للكتاب .. فتساءل هل يخضع هذا التحديد لقانون العرض والطلب كأى سلعة فى السوق .. أو نضعه على أساس تكلفة الكتاب .. أو يكون على أساس الموضوع نفسه .. أو يجب أن يكون اسم المؤلف هو الأساس فى التحديد .. ثم ما هى نسبة المؤلف فى أرباح حققها كتابه .. أو ما هو أجره عن التأليف .. وهل تكفى هذه او تلك لاستمرار المؤلف فى مهنة التأليف ؟ .. والكلام فى هذا الموضوع طرقه المتحدثون فى الجلسات السابقة .. نظرا لتشابك نواحى موضوع الكتاب .. الا ان الدكتور سيد ابو النجا كرر وجهة نظره معترضا .. ليؤكد أن النقاش فى مثل هذه الموضوعات يجب أن يبدأ من نقطة النهاية .. ألا وهى نقطة ثمن الكتاب .. وعلى ضوئه يتم الاتفاق على بقية النواحى من تكلفة وأجر مؤلف أو مترجم .. ولهذا فاننا يجب أن نفرق بين أنواع الكتب القابلة للطبع والتوزيع .. فالكتاب أيا كان لا بد أن يتوافر فيه عنصر اساسى هو المرونة .. بمعنى ان يكون قابلا للتوزيع فى أسواق وأوقات مختلفة .. الأمر الذى يطمئن كل ناشر الى قبول الاتفاق عليه . فعلى ضوء الثمن فى السوق يمكننا أن نحدد فى العقد بين الناشر والمؤلف تكاليف النشر من ثمن ورق وحبر وأنماط الى أجور الى نسبة أرباح وعمولة توزيع . ومن ثم فلا يصح ان نجعل من الجهد الذى بذله المؤلف فى التأليف أساسا للاتفاق ، كذلك لا يصح أن نجعل من قيمة الموضوع قاعدة لهذا الاتفاق . لأن الناشر هو الوسيلة الرئيسية لايصال هذه الثقافة الى القراء . فالمؤلف — كما يقول الدكتور أبو النجا — قام بعملية طهو الطعام ، والناشر هو الذى يدعو المدعوين الى وليمة لهذا الطعام . فهل فى امكاننا ايجاد معايير ثابتة لتكاليف الطباعة .. نضع على هديها أسس العقود بين المؤلفين والناشرين ؟ اننا نجد محاولة للأستاذ محمد المعلم قائمة على الاحصائيات . جاء لنا فيها باحصائيات لنسبة التكلفة بين الورق والطباعة فى الكتاب ذى العشر الملازم والضيق التوزيع .. وكم كنا نود أن تكون هذه المحاولة جماعية من الناشرين حتى تكتسب

صفة الالزام الأدبى .. فنسترشد بها فى عمليات اخراج الكتب لكن الدكتور عبد الرحمن بدوى دافع بحرارة عن نصيب المؤلف .. فقال أن كلمة السوق هذه .. كلمة غامضة يلجأ اليها الناشر للتمويه على المؤلف الذى لا يعرف دقائقها .. بل ان أكثر الناشرين يلجأون الى طبع كميات أكثر من المتفق عليها مع المؤلف ودليله على هذا مانراه من ثروة يكنزها الناشرون وما عليه المؤلفون من مستوى من العيش ضئيل .. ثم طالب بابعاد العقود عن كل هذه الأمور الغامضة . الا ان هذه الصيحة المخلصة لم تلق استجابة لأنها لا تعالج مشكلات الكتاب الا من وجهة نظر المؤلف فقط..

ولهذا فان تيار النقاش كان متجها الى تجنيد كل الأطراف لخدمة الكتاب باعتباره الدعامة الأولى لنشر الثقافة .. ولا يتطلب هذا الا مجرد تحديد صفات معينة للناشر الحديث حتى يستطيع أن ينتقى الكتاب الجيد ، ويبذل فى سبيل نشره أقصى الجهود خدمة للثقافة أولا .

لذلك فان الأمر يقتضى أيضا القيام بحملة تنويرية تشجع على القراءة فى الداخل ، وتصدر الكتب الىالخارج بكميات أكثر بكثير عما هى عليه الآن .

أما كيف نشجع على القراءة ... فيتمثل هذا فى الكتاب نفسه ، وفى الدعوة لهذا فىالصحف والمجلات ووسائل الاعلام كافة ، واقامة المعارض المتنقلة فى الأقاليم ، والاشتراك فى المعارضالدولية الخاصة بالكتب . ويجب أيضا أن تشجعالهيئات والمكتبات العامة والجامعات على قراءة الكتب واقتنائها .. ولهذا فان هذه السبل تداخات فى مهمة تسويق الكتاب تماما .. خصوصا اذا ما تعاونت مؤسسات القطاع العام للنشر .. كى تتغلب على عقبات النقد بين أسواق العالم العربى .

وتركت المؤتمر انتظارا لاعلان التوصيات ونتيجة الكتب الفائزة فى الجلسة الأخيرة .. فنزلت الى المعرض لأعيش لحظات بين الجماهير القارئة .. وهى تتزاحم على شراء الكتبالمخفضة أثمانها بنسبة ٢٠ ٪ .. رأيتهم يدققون فى انتقاء كتب وسلاسل كاملة منها ، ورأيتهم يتهافتون على الارتباط بنظام التقسيط لشراء الكتب .. شعرت خلالها براحة قلبية وصفاء ذهنى . جعلانى اتمتم قائلا .. **ليس الكتاب مجرد سلعة تباع وتشترى ، ثم يضيع أثرها وأهميتها بعد الشبع منها .. انما هو دعامة دائمة لبناء اجيال واجيال ، ومن ثم يصبح من الضرورى أن تتولى أمره الدولة دون غيرها** . وانا هنا لا أغمط مجهودات دور النشر فى هذا السبيل أو أخشى مطالبتهم باتحاد لهم ، كذلك **لا أريد أن أصدر نداء للقراء وأقول يا قراء العالم العربى اتحدوا امام المؤلف والناشر .. وانما أوجه رجاء الى كل العاملين فى خدمة الكتاب العربى فاقول رفقا بالعقول من الغثاء ورفقا بالجيوب من المغالاة ..**

ثم عدت ثانية لأسمع التوصيات التى لم تخرج عما دار فى الجلسات ، وأسعد بلحظات اعلان نتيجة الكتب الفائزة فى الاشتراكية العربية وتبسيط العلوم والفنون .. فهنيئا لدور النشر التى فازت ، ومرحى بمؤلفى هذه الكتب الفائزة .. ثم طوبى للثقافة وللقراء بهذا الاتجاه التى ترعاه دولتنا الاشتراكية .

أخبار الكتاب العربي في العالم

يقدمه مدير التحرير

● رأت « دار الكتب » أن تشارك العالم العربي فى احياء ذكرى فقيد الأدب المرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد فأصدرت نشرة عنوانها « **عباس محمود العقاد : نشرة ببليوجرافية بآثاره الفكرية** » من اعداد الأستاذ عبد الستار عبد الحق الحلوجى رئيس قسم فهرسة المخطوطات بدار الكتب . وهو بحث كان قد أعده بالانجليزية عن آثار هذا الأديب الكبير ونتاجه الفكرى أجازته جامعة لندن كجزء من دراسته العلمية التى حصل بها على دبلوم الدراسات العليا من معهد المكتبات بتلك الجامعة، فترجمه بناء على رغبة الدار وأضاف اليه ما جد منذ قدمه الى تلك الجامعة . ولم يتبع فى تقسيم الموضوعات وترتيبها أيا من الطرق المعروفة فى تصنيف المعرفة الانسانية ، وانما كانت تقسيماته كلها نابعة من طبيعة المواد التى تناولها العقاد فى كتاباته فجاءت فصوله العشرة الرئيسية هى : الكتب العامة ، الفلسفة ، الدراسات الدينية ، البحوث اللغوية ، الفنون والآداب ، العلوم الاجتماعية ، الدراسات المتعلقة بمصر والعالم العربى ، التراجم والسير ، الموسيقى ، المتفرقات. ثم خصص الفصل الحادى عشر بالكتب التى تعرض لها العقاد بالنقد والتعريف .

● وقد صدر أخيرا للعقاد كتاب جديد نشرته « دار الهلال » بعنوان « **حياة قلم** » بدأها بولادة قلمه فى اسوان ، وتحدث عن ظروف هذا الولادة والجيل الذى ولد فيه ، وقارن بين قلمه وقلم عبد الله النديم فى ذلك الحين ، وتحدث عن الصحافة قبل خمسين عاما وعن أحاديثه مع الساسة ، وما وقع لهذا القلم ولصاحبه من أزمات ، وكيف اشتغل بالصحافة فى الحرب العالمية الأولى وكيف انقطع عنها ، ثم عاد اليها .

● كما نشرت له أخيرا مكتبة «دار العروبة» طبعة جديدة من كتاب « **عمرو بن العاص** » . وتنشر له طبعة جديدة أيضا من كتابه «**مطلع النور**» وهو دراسة للعالم ولشبه الجزيرة العربية قبل أن يبعث الرسول الكريم برسالته الخالدة .

● يصدر عن « الدار المصرية للتأليف والترجمة » كتاب « **حياة مطران** » **تأليف الأستاذ** طاهر الطناحى مدير تحرير مجلة الهلال ، وهو دراسة وافية فى نحو ستمائه صفحة عن خليل مطران شاعرا وناثرا ومؤلفا وفنانا مسرحيا ، كما تناولت قصة حبه ، ثم علاقته بعصره وقدمت عرضا تحليليا لهذا العصر من خلال حياة هذا الشاعر الكبير .

● يصدر معهد الدراسات العربية العالية لجامعة الدول العربية فى مجموعة « وثائق ونصوص » الطبعة الثانية من كتاب « **اتفاقيات وعقود البترول فى البلاد العربية** » باشراف الدكتور محمد لبيب شقير وزير التخطيط والأستاذ صاحب ذهب من رجال الجامعة العربية باستدراكات كثيرة لما ورد فى الطبعة الأولى واضافات جديدة عليها . وهذا الكتاب يعد من أمهات المراجع فى موضوعه .

● عهدت الادارة العامة للثقافة (**قسم الترجمة والألف كتاب**) بوزارة التعليم العالى **الى الأساتذة فؤاد كامل وجلال العشرى**

وعبد الرشيد الصادق ترجمة ((**الموسوعة الفلسفية المختصرة**)) التى أشرف على تحريرها J. O. Urmson من الانجليزية الى العربية ، وقام بمراجعتها والاشراف على ترجمتها واضافة شخصيات اسلامية اليها الأستاذ الدكتور زكى نجيب محمود .

وهذه الموسوعة قد انطوت على شرح للمصطلحات الفنية الرئيسية التى يستخدمها الفلاسفة على اختلاف آرائهم ، ثم التعريف بالمذاهب المشهورة ، ثم عرض للفلاسفة كل على حدة ، ثم وصف الميادين الرئيسية فى البحث الفلسفى . وقد روعى فيها اختيار التفسير الضيق الى حد ما لما عساه ان يكون قوام الفلسفة ويكون أقرب الى ما تعارف عليه الفلاسفة المحترفون فى المأثور الفلسفى الغربى منه الى العرف الشعبى . ثم النظر فى الاختيار الى الأولوية لحاجات القراء غير المتخصصين . وختمت هذه الموسوعة بملاحق ضمت خمس قوائم : واحدة بأسماء الأعلام ، وثانية بأسماء المذاهب ، وثالثة بأسماء المؤلفات ، ورابعة بأسماء الذين أسهموا فى وضع تلك الموسوعة ، والقائمة الخامسة بمراجع فى الفلسفة .

● صدر العدد الرابع من ((**مجلة المكتبة العربية**)) التى يصدرها الدكتور محمود الشنيطى ، وقد اشتمل على بحث بيبليوجرافى عن الرسائل الجامعية التى قدمت الى جامعات القاهرة والاسكندرية وعين شمس ، فى كليات الآداب والتجارة والحقوق ، منذ انشائها حتى يونية سنة ١٩٦٣ . وقد قام باعداد هذا البحث : سهير محفوظ ونوال البشلاوى وسيدة ماجد ؛ غير أن هذا البحث على أهميته لم يسلم من كثير من الأخطاء فى أسماء أصحاب الرسائل ، وفى عناوينها . فقد كتب اسم ((حسين مؤنس)) : ((حسنين)) . و ((محمد موسى هنداوى)) : ((مرسى)) . ((ومصطفى الصاوى الجوينى)) : ((مصطفى الصادق السجوينى)) وغير ذلك مما تضيع معه القيمة العلمية للبحث .

● أشرنا فى العدد السادس من هذه المجلة الى كتاب ((**أعلام الاسكندرية فى العصر الاسلامى**)) الذى تنشره دار المعارف للدكتور جمال الدين الشيال .

ونضيف هنا ان الأستاذ نقولا يوسف قد انتهى من اعداد كتاب عنوانه ((**أعلام الاسكندرية منذ أقدم العصور**)) يعرف فيه بجميع من أنجبتهم الاسكندرية من الأدباء والمفكرين ، وكذلك جميع الذين أقاموا فيها فترات طويلة أو قصيرة .

ومن الطريف أن الدكتور الشيال والأستاذ نقولا يوسف من أبناء دمياط وقد أقاما فى الاسكندرية فترة طويلة . وقد وضع الأستاذ نقولا منذ سنوات قلائل كتابا ضخما سجل فيه تاريخ موطنه ((دمياط)) .

● سيصدر عن ((دار القلم)) كتاب جديد : للأستاذ ابراهيم الابيارى عنوانه ((**تاريخ القرآن او رسالة ورسول**)) يترجم فيه للرسول من ميلاده الى وفاته ، ويتكلم فيه عن معنى الوحى ونشأته ، وعن الغزوات فيوضح انها لم تكن للحروب ولكنها كانت لنشر الدعوة ، ثم يتناول بعد ذلك تحليل نزول القرآن وتدوينه وتجزئته وكل ما يتصل به من العلوم ، ويرد على شبهات المستشرق نولدكه واضرابه فيما كتبوا عن تاريخ القرآن .

● ويصدر قريبا للأستاذ محمد عبد الله عنان القسم الثانى من كتاب ((**عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والاندلس**)) وبه تتم سلسلة الكتب النفيسة التى اخرجها مؤرخا فيها لدولة الاسلام فى الأندلس .

● وتصدر عن ((الدار القومية للطباعة والنشر)) مجموعة قصصية للأستاذ محمود البدوى عنوانها ((**حدث ذات ليلة**)) ، وهو عنوان احدى قصص هذه المجموعة الجديدة .

● ويصدر عن ((دار مكتبة مصر)) الجزء الأول من الملحمة الكبرى التى كتبها الأستاذ على احمد باكثير فى تسعة عشر فصلا ، كل فصل منها سيصدر فى جزء قائم بذاته ، وعنوانها ((**ملحمة عمر**)) . تناول فيها حياة امير المؤمنين عمر ابن الخطاب منذ تولى الخلافة حتى وفاته من زوايا مختلفة . ومن هذه الفصول فصلان عن فتح مصر .

● صدر الجزء الأول من كتاب « **ليبيا قبل المحنة وبعدها** » الذى ألفه الأستاذ خليفة عبد المجيد المنتصر ، المستشار السياسى لسفارة ليبيا بالقاهرة ، مؤرخا فيه لليبيا الحديثة ، ولهذا الكتاب جزآن باقيان تحت الطبع .

● وبهذه المناسبة نذكر ان الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجى قد أعد للطبع كتابا جديدا عن « **الأدب الليبى من اقدم عصوره الى اليوم** » ، وكان قد جمع مادته خلال الفترة التى انتدب فيها للتدريس فى هذا القطر الشقيق .

● قامت الأديبة العراقية السيدة بهيجة الحسنى بتحقيق كتاب « **ربيع الأبرار** » للزمخشرى أبى القاسم محمود بن عمر المتوفى سنة ٥٣٨ هـ وتقدمت بهذا التحقيق الى جامعة كمبريدج للحصول على الدكتوراه . وقد نسبت أبيات الشعر الواردة فيه الى قائليها مع ذكر المصادر الأخرى التى ورد فيها هذا الشعر والترجمة لصاحبه وشرح ألفاظه .

ومما يذكر أن المرحوم الدكتور محمد أسعد طلس كان قد قام بتحقيق هذا الكتاب ولكن المنية وافته قبل أن يطبعه .

● صدر ديوان « **الأشواق الحائرة** » للأديب العراقى سلمان هادى الطعمة ، وهو مجموعة من القصائد العاطفية والوطنية . وكان قد ظهر لهذا الشاعر من قبل ديوان اسمه « **الأمل الضائع** » وكتاب « **شاعرات العراق المعاصرات** » .

● نشرت مكتبة المثنى ببغداد عن نسخة مخطوطة محفوظة بتلك المكتبة ترجع الى القرن التاسع الهجرى كتاب « **لطف التدبير** » لمحمد بن عبدالله الخطيب الاسكافى المتوفى سنة ٤٢١ وهو يعتبر من اقدم الكتب التى تكشف عن جوانب الحياة السياسة للمجتمع الاسلامى فى عصر المؤلف وخلال القرون الأربعة الأولى من التاريخ الاسلامى . وقد حققه وعلق عليه أحمد عبد الباقى .

● صدرت أخيرا عن دار العلم للملايين ببيروت الطبعة الثانية من كتاب «**الدين والضمير**» للأستاذ محمود الشرقاوى الأستاذ بالجامعة الأزهرية . وكانت الطبعة الأولى قد صدرت سنة ١٩٥٨ عن مكتبة الأنجلو المصرية .

● نشرت دار الكاتب العربى فى بيروت كتابا عنوانه « **القرامطة ، أصلهم ، نشأتهم ، تاريخهم، حروبهم** » للأستاذ عارف تامر . وهو يقول ان تلك الحركة كانت تهدف الى قلب نظام المجتمع السائد ، وتغيير الحالة السياسة المسيطرة على العالم الاسلامى ، كما يقول ان القرمطية حركة ثورية انقلابية فلسفية ذات تعاليم اشتراكية عميقة جديدة عنيفة على المجتمع .

● ظهرت فى بيروت ترجمة عربية قام بها الدكاترة احسان عباس ومحمد يوسف نجم ومحمود زايد لكتاب « **دراسات فى حضارة الاسلام** » للمستشرق الانجليزى هاملتون جب. وهذا الكتاب هو مجموعة مقالات وبحوث كتبها المؤلف على فترات ثم قسمها الى ثلاثة اقسام : الأول « التاريخ الاسلامى فى العصور الوسطى ». والثانى « فى النظم والفلسفة والدين » . والثالث « دراسات فى الأدب العربى » .

● « **هوامش** » كتاب جديد يخرج فى بيروت للأستاذ ميخائيل نعيمة يضم فصولا عالج فيها المؤلف بأسلوبه الأدبى وتأملاته الفلسفية مسائل النفس والحياة .

وكان الأستاذ ميخائيل نعيمة قد وجه نداء الى الأدباء ليوافوه برسائله التى بعث بها اليهم ليجمعها فى كتاب ، ولكنه أرجأ ذلك حين تبين أن هؤلاء الأدباء لا يريدون التفريط فى هذه الرسائل.

● وقد صدرت أخيرا فى بيروت دراسة عن هذا الأديب الكبير عنوانها « **ميخائيل نعيمة الأديب الصوفى** » بقلم الشاعرة اللبنانية السيدة ثريا ملحس .

● ونشرت دار الكتاب العربى فى بيروت مجموعة أقاصيص للأديب الأردنى الأستاذ يعقوب العودات المعروف بالبدوى الملثم عنوانها « **الوان على طبق** » .

● يعكف الأستاذ نظير زيتون الأديب الذى عاش فى المهجر سنوات طويلة ثم عاد الى وطنه سوريا وزار القاهرة خلال عودته سنة ١٩٦٠ ، على وضع كتاب عن « **أديب اسحاق** » تلميذ السيد جمال الدين الأفغانى .

● نشرت « دار الفكر » بدمشق كتابا للدكتور عبد الكريم الأشتر المدرس بكلية الآداب

بجامعة دمشق عنوانه « **دعبل بن علي الخزاعي شاعر آل البيت** » وهو دراسة تحليلية لحياته وشعره . وقد ألحق بهذا البحث ثلاثة ذيول سرد في الأول منها آراء بعض النقاد والشعراء القدامى في هذا الشاعر ، وجمع في الذيل الثاني أخبار كتبه وما وصل الينا منها من نقول عنها ودرسها دراسة تحليلية موجزة تعين على فهم ثقافة هذا الشاعر التي تحكمت في اتجاهه الفني في الشعر وتبين ألوانها . ونظر في الذيل الثالث في المراجع فقوم كل ما كتب عن دعبل في القديم والحديث.

● يترجم الأديب الأردني الأستاذ عيسى الناعوري روايته « **بيت وراء الحدود** » الى الايطالية لتنشر في روما بمقدمة يكتبها الأديب الايطالي كوازيمودو الفائز بجائزة نوبل في الأدب عام ١٩٥٩ .

● ظهرت في الجزائر مجلة تجديدية اسمها « **مجلة الفكر الاسلامي** » لتشارك في دور ما بعد معركة التحرير ، ولتعمل – على هدى الدين – على تخليص الفكر الاسلامي مما لحقه من شوائب الاستعمار والجمود .

وقد اشترك في تحرير العدد الأول منها طائفة من علماء الجزائر من أمثال : محمد الحاج حسين ، الشيخ بيوض ابراهيم ، الشيخ ابراهيم أبو اليقظان ، والشيخ عبد الرحمن (بنعمر) (ابن عمر) .

● صدر العدد الأول من مجلة « **الندوة** » في مدينة سان باولو في البرازيل وهي مجلة ، شهرية أدبية تصدر باللغة العربية يحررها أعضاء جمعية متخرجي جامعة بيروت الأميركية المقيمون في البرازيل ومديرها المسئول الأستاذ روفائيل يافث .

وقد أهدت جامعة الدول العربية الى هذه المجلة حروف الطباعة اللازمة لاخراجها في أجمل ثوب لتكون بحق « سفارة للأدب والثقافة » كما قال محررها . وقد جاء في افتتاحية العدد الأول أن هذه المجلة « ستكون منبرا حرا لكل الآراء والمذاهب ، لكل الميول والمشارب ، متى كان القصد منها الاخلاص والسعي وراء الحقيقة دون تعصب أو تحيز ، دون تشبث أو جمود . أن مبدأنا ليس حرية الكلام والكتابة فقط ، بل محاربة كل من يقف سدا في وجه الحرية ويعمل للقضاء عليها » .

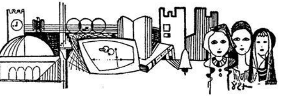
وقد احتوى العدد الأول منها على هذه المقالات: « أنباء الجامعة » للأستاذ رشيد شيكور ، و « آلاء المستشرقين واخطاؤهم » للأستاذ توفيق قربان ، و «التجديد في كتابة تاريخ العرب : جرجي زيدان رائد المدرسة الحديثة من مؤرخي العرب» للأستاذ رشيد شكور، «الجاحظ وفلاسفة أوروبا» للأستاذ حامي نصر ، و « حديث عن الورد » للأستاذ أمين الغريب ، و « لبنان وجامعة الدول العربية » للأستاذ جوزيف نفاع . عدا مقالات علمية وطرائف أدبية .

● يعيد الأديب التونسي الأستاذ أبو القاسم كرو طبع كتابه « **آثار الشابي وصداه في الشرق** » بعد أن أضاف عليه اضافات جديدة ، فيتحدث عن صدى نابغة الشعر التونسي في العالم ، ويسجل فهارس بالمراجع التي تناولت هذا الشاعر باللغات الفرنسية والانجليزية والألمانية والايطالية علاوة عما كتب عنه في العربية .

كما يصدر طبعة جديدة من كتابيه « **الشابي : حياته وشعره** » و « **كفاح الشابي** » .

● « **ذكرياتي في البادية** » هو عنوان كتاب صدر للأديب السوداني الأستاذ حسن نجيلة .

● الشاعر الحجازي الأستاذ محمد العامر الرمح أعد للطبع كتابا عنوانه « **دراسات نقدية** » ، وديوان شعر من نظمه ، ثم كتابا عن الشاعر التونسي أبي القاسم الشابي .



تعريفات

كل شيء عن الحيتان

تاليف : روى تشابمان اندروز .

ترجمة : الدكتور محمد صابر سليم .

الناشر : دار المعارف بمصر بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين ١١٧ صفحة ١٤×٢٠ ث ٣٠ قرشا

يعطينا هذا الكتاب فكرة طيبة عن مدى النشاط الذى يقوم به العلماء فى الولايات المتحدة ، والمخــاطر التى لايتورعون عنها مهما كانت ، من أجل خدمة فكرة علمية معينة أو نشاط علمى جديد . فمؤلف الكتاب عالم مغامر طوف أرجاء عديدة من العالم ، وجاب بحارا واختبر مياها أودت بحياة كثير ممن اختبروها قبله . وهذا الكتاب كتاب مغامرات الى جانب أنه كتاب علمى جاد ، وهو حصيلة جهد مستمر لثمانى سنوات درس خلالها المؤلف كل شيء عن الحيتان وطرائقها المختلفة فى الحياة وأوجه الاستفادة التى نستمدها منها .

والحوت من الحيوانات التى ترجع الى عصور بعيدة تمتد الى ملايين السنين ، وكان معاصرا للديناصور ، وهو من الثدييات عاش على الأرض قبل أن تنتقل به الطبيعة الى البحر ولاتزال آثار أرجله القديمة باقية الى اليوم . ويصل طول بعض هذه الحيتان الى الثلاثين مترا ويزيد وزن البعض الآخر على الخمسين طنا ، ويعمر الواحد منها سنين قد تصل العشرين ، ويجوب البحار فى رحلات متعددة على توالى فصول السنة .

ومن قديم عرف الانسان الحيتان واستفاد بما يجلبه منها من لحم لذيذ الطعم يدخل فى غذاء السواد الأعظم من اليابانيين ، ويستخدم عظمه ودمه كسماد عضــوى ممتاز ، أما دهنه فهو ينفع فى صناعات مختلفة وفى أغراض طبية مفيدة ، كما أن الحوت يختزن أطنانا من الزيت فى رأسه تستخدم فى الاضاءة وفى وجوه عملية أخرى ، وبعض أنواع الحيتان ذات رائحة طيبة ويستخرج منها العنبر .

« انك تراها لبضع لحظات قصيرة فوق السطح ثم تختفى ، وتعجب ماذا يجرى فى أعماق المحيط ، ولكن العلمــاء يكتشفون الأسرار رويدا رويدا ، كما أن الأجهزة الحديثة التى تعمل تحت سطح البحر تفتح لنا آفاقا جديدة ، ونحن طوافون على سطح الماء فى السفن ، وبعض سكان هــذه الآفاق البعيدة تحت سطح الماء من الحيتان ، وكل سنة تعلن المزيد عن حياتها الخاصة ، وكل المعلومات الباهرة » .

الختان ضلالة إسرائيلية مؤذية

تاليف : يوسف لويس

ترجمة وتقديم : عصام الدين حفنى ناصف

الناشر : دار ومطابع الشعب ١٠٤ صفحة . ١٤×٢٠ ث ١٥ قرشا .

كثر الحديث فى الآونة الأخيرة عن الختان ، وضرورته بالنسبة للذكر والأنثى فى نظر البعض ، وعدم جدواه وفائدته الى جانب الضرر المترتب عليه فى نظر البعض الآخر . وهذا الكتاب يتناول بالشرح والتبسيط مشكلة الختان ، وتاريخ هذه العادة التى توالت على أجيال الانسان منذ أحقاب متباعدة من الزمان . والفــه أستاذ محيط بأطراف هذا الموضوع عليم به ، وترجمه وقدم له مع الرجوع الى كتاب الله الكريم وحديث النبى وســنته أستاذ أديب الى جانب معارفه الدينية الواسعة .

ويبدو أن الكتاب كان فى الأصل محاضرة أو رسالة للمؤلف لم يقتصر المترجم عليها ، بل أضاف اليها اضافات اسلامية . فتحدث عن حرية الفكر فى التــاريخ وتلك الاسرائيليات التى بثها الملاحدة والذين تربطهم بكتب اليهود صلات مديدة لافساد الاسلام . ثم قفى بالحديث عن الختان كما كان شائعا عند العرب وعند المسلمين الأوائل ، وناقش ماقيل عن ختان الرسول والأحاديث المنحولة عنه .

والختان فى الأصل عادة يهودية استمرت عند العبريين أمدا طويلا ، ولاتزال موجودة حتى اليوم ، ولهذه العادة مضار عديدة بالنسبة للذكر والأنثى على حد سواء ، فالى جانب ما تسببه من ألم جسمانى عنيف فانها تترك رواسب فى نفس الطفل قد تؤذيه فى مراحل حياته المستقبلة ، كما أنها تسبب ضعفا جنسيا كان من الممكن تجنبه بعدم

اجراء الختان • هذا الى أن العملية نفسها قد تؤدى الى الوفاة فى حالات النزيف المفاجىء أو تلوث الأيدى والآلات التى تجرى بها •

يقول فضيلة الأستاذ الأكبر المرحوم الشيخ محمود شلتوت « والذى أراه أن حكم الشرع فى الختان لايخضع لنص منقول ، وانما يخضع فى الذكر والأنثى لقاعدة شرعية عامة وهى أن ايلام الحى لايجوز شرعا الا لمصالح تعود عليه وتربو على الألم الذى يلحقه » •

هيرمن ملفيل

تأليف : ليون هوارد

ترجمة : بكر عباس

الناشر : المكتبة الأهلية • بيروت • بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين • ٨٢ صفحة • قطع صغير • ث ١٠٠ ق•ل

يحفل تاريخ الأدب الأمريكى بعديد من الرواد العباقرة الذين استطاعوا أن يشاركوا أمتهم فى النهضة المبكرة التى بدأت فى أعقاب حرب الاستقلال • من هؤلاء هيرمن ملفيل مؤلف صاحب رواية موبى دك •

والقرن التاسع عشر ــ كما هو معروف ــ هو عصر الرومانتيكية فى الأدب الأوربى ، ولكن هذا الأدب فى القارة الأمريكية كان يتسم بسمة خاصة ، هذه السمة هى روح المغامرة التى استمدها هؤلاء الأدباء من روح هذا العصر ، وما كان معروفا بالزحف نحو الغرب ، الى جانب المخاطرات الجريئة التى كانت تمتد الى البحار الجنوبية •

وهذا الأديب يمثل روح عصره أصدق تمثيل ، فهو مغامر الى جانب أنه أديب ، بدأ هذه المغامرات فى سن مبكرة • فقد هرب من المدرسة لما لقى فيها من ضجر ، واشترك فى رحلات لصيد الحيتان ، وعاش مع آكلى لحوم البشر • وكان لهـــذا كلـــه أثره على أدبه ، فبدأ نموه الفـــكرى فى الخامسة والعشرين ، وكتب موبى دك ــ وهى اخلد آثاره ــ فى الحادية والثلاثين وعلى مدار حياته التى امتدت الى اثنين وسبعين عاما كتب ست عشرة رواية وعملا أدبيا الى جانب مقالاته العديدة فى الصحف والمجلات الأدبية •

ولكن روح المغامرة عند هيرمن ملفيل لم تكن لتمنع دون تحصيله العلمى والأدبى الوافر ، فقد كان يقرأ بنهم ، وصحب فلاسفة عصره المشهورين ، صحبهم فى كتبهم وفى أشخاصهم، واهتم بكتاب عصر اليصابات وكان يكن لشكسبير احتراما كبيرا•

وقصة موبى دك تدور حول حوت ضخم بهذا الاسم ، فتك بعديد من الصيادين والبحارة الذين ألقى بهم سوء الحظ الى أنيابه • وكان من جملتهم آهاب بطل القصـــة الذى خلع الحوت ساقه ، فتبعه لينتقم منه • ونجح آهاب فى انتقامه ، وكان الثمن الذى دفعه أن غرق هو وبحارته وأخذ معه ثاره الى الأعماق •

لقد كان ملفيل كاتبا عظيما ••• لم ينصفه جيله ، وكان هذا الانصاف من نصيب جيلنا هذا الذى اعترف به وأعطاه المكانة اللائقة بكاتب عظيم مثله •

الأدب المصرى فى ظل الحكم العثمانى

تأليف : محمد سيد كيلانى

الناشر: الدار القومية العربية للطباعة ٣٥٠صفحة١٧ × ٢٤ ث ٣٥ قرشا

جرى الاعتقاد لدى أبناء هذا الجيل والجيل السابق على أن الأدب المصرى فى العصر العثمانى كان يمثل مرحلة من مراحل الضعف وخمول الذكر فى تاريخ الأدب العربى • وقد كان هذا شعورى حين بدأت أطالع كتاب الأستاذ كيلانى، بيد أن المؤلف لم يلبث أن فاجأنا برسم صورة الأدب المصرى فى العصر العثمانى على نهج جديد ، فهو يرى ــ ولعله صادق فيما يراه ــ أن الأدب المصرى فى هذا العصر لم يكن متدهورا كما كنا نعتقد ، وانما كان على حال من الازدهار ميسورة • فقد استمر التطور فى فروع الأدب القديمة ، كما انتعشت أو ظهرت فروع جديدة لم تكن معروفـــة أو متداولة من قبل ، كما أن النزعات الصوفية كانت تضفى على هذا الأدب قيما جمالية عديدة •

الظاهر اذن من الكتاب أنه دفاع عن الأدب المصرى فى العصر العثمانى ، لكن المؤلف لم يعطنا الأدلة العلمية الكافية فى دفاعه هذا ، وانما كان يلجأ الى الاستشهاد على أصـــالة شاعر معين بنصوص من عصر هذا الشـــــاعر ، دون أن يقدم لنا دراسة وافية تؤيد رأيه ، كما أنه لم يسرد حجج هؤلاء الذين يطعنون فى أدب العصر العثمانى ، أو أن يرد عليهم باسهاب • وعندى أنه لو كان فعل هذا لبلغ مكانا عاليا من التوفيق الى جانب التوفيقات الأخرى التى وصل اليها •

وقد عرض المؤلف فى كتابه لأحوال المجتمع المصرى فى العصر العثمانى ، والمدارس الفكرية المعروفة فى ذلك العصر، والأغراض الشعرية والنثرية السائدة ، مع دراسة تطبيقية لنخبة من أهل هذا الأدب شعرا ونثرا •

ويتميز الكتاب بميزتين هامتين • الأولى : أنه أعطانا صورة عامة للأدب المصرى فى العصر العثمانى ، ولا أقصد أنه رسم هذه الصورة كما يجب أن تكون ، وانما أعطانا الملامح الظاهرية منها ، والميزة الثانية : أنه اثار قضية هامة من قضايا الأدب العربى ، وهى مدى صدق الحكم الذى أصدره مؤرخو الأدب على هذا العصر بما فيه من الوان أدبية شتى •

مع شعوب أفريقية

تاليف : عبده بدوى .

الناشر : الدار القومية – الكتاب الماسى – ٢١٨ صفحة ١٧ × ٢٤ ث ٢٥ قرشا .

مؤلف هذا الكتاب شاب متخصص فى الشئون الافريقية، وله دراسات طيبة عن تلك البلاد التى كانت الى عهد قريب غير معروفة لكثير من المثقفين ، وعرض فيه لتاريخ اثنى عشرة دولة افريقية على مر العصور فى حوار أدبى سلس .

بيد أنك تشعر وأنت تقرأ هذا الكتاب بأنك ازاء مسرحية متعددة الفصول حافلة الأحداث والأجواء والمناظر ، فطورا تجد نفسك فى أعالى النيل وطورا آخر فى الصحراء ، وطورا ثالثا فى أقصى حدود القارة .

الكتاب اذن يعطيك احساسا عميقا بالعطف على أبناء هذه القارة الذين طالما تعرضوا لعذاب قومى مضن ودعاية مغرضة شوهاء ، فهو صورة صادقة على وجه العموم بريئة من كل مظنة أو حسبان .

وعلى هذا فالكتاب مجهود طيب ، لولا ما به من عبارات عصرية لا تتفق مع لغة العصر الذى وقعت فيه تلك الأحداث التاريخية التى عرض لها المؤلف ووفق فى صياغتها على وجه عام وبقدر ما استطاع .

الجنة الأولى

نظم : يوسف سمباج .

الناشر : مطبعة حليم . ١١٠ صفحة ١٤ × ٢٠ ث –

جميل جدا أن يظهر فى هذه الفترة التى نعيشها الآن والتى يعد السد العالى أحد الملامح المميزة لها ديوان شعر لأحد أبناء الجنوب ... من بلاد النوبة ، تلك البلاد التى ندين لها بالشىء الكثير . وهذا الديوان يعطينا احساسا عميقا بجلال اللغة العربية وحسن تقبلها عند أبناء النوبة، حتى ظهر بينهم اديب ينظم شعره أساسا باللغة العربية الى جانب اللغة النوبية نفسها .

ومن الطبيعى أن يتفرد النيل بجانب كبير فى قصائد هذا الديوان الى جانب المعانى العديدة والأخيلة المستوحاة منه ، كما أن ما خلفه الفراعنة فى ذاكرة القوم ، وما ابتنوه فى بلادهم من معابد وقلاع وقبور وآثار أخرى شتى يحتل جانبا آخر فى الديوان :

والنوبيون عميقو الايمان والشعور الدينى أقوياء فى نفوسهم ، برغم حداثة عهدهم بالاسلام وطول عهدهم بالأديان الأخرى وثنية ومسيحية . ونلمح أيضا فى الديوان مقدار ما كان يعانيه أهل النوبة فى العهود الماضية ، من عنت الأداة الحكومية وفسادها ، وجهل الدعاة لمصالح الرعية، أو تجاهلهم لها واهتبالهم الفرصة لتسخيرهم حيث شاءوا ومتى شاءوا . ثم ماترتب على هذا من طغيان ماء النهر وعصفه بأقوات القوم ولوازم حياتهم السهلة ، وقد شارك النوبيون فى خضم الأحداث السياسية التى توالت على الوطن الأم من هذا القرن العشرين وكان لهذه الأحداث أثرها فى نفسيات القوم وسخطهم على الحياة السياسية المضطربة . ... وتأتى قصائد الشاعر عن النصر الكبير فى بور سعيد تعبيرا أمينا عما يعتلج فى نفسه من فرح عندما يفرح الوطن ، وما ينتابها من شقاء عندما يشقى الوطن . وفى قصيدته عن « جمال النيل » يقول :

هذا جمال النيل منه فاستمدوا
مثلا قويا فى النضال لكم وجدوا
فالثورة البيضاء للأحرار عهد
ونهاية الاقطاع للجبروت حد
بنضاله فى بور سعيد الكون يشدو

هذا وقد ذكر الشاعر أن قصائد هذا الديوان ليست كل قصائده التى نظمها فى السنين الماضية ... عسى أن يبادر بنشر الباقى منها فيكون فى ذلك خدمة لنا ، ويكون فيه أيضا جلاء للحقائق وتنوير للأذهان ، اذ أن بلاد النوبة ليست بلاد السد العالى فحسب ، وانما هى بلاد شعراء أيضا .